

التلويب إنما يكون بعد هذا كله بالمزيد مما يجلب عليهم أسباب الراحة والهناء والرفاهية مما هو في مصلحة السلطان نفسه لأنه يزيد الدولة قوة وثراء والسلطان عظمة ومجداً حقيقياً وإذا كان السلطان كما جاء في الأثر الشريف ظل الله في الأرض فاحر به أن يكون فيثاً وارفاً وخالاً ظليلاً

﴿ الباب السابع ﴾

﴿ أدب النفس ﴾

نفس الانسان المخاطبة - النفس والقلب والروح - الشرور ومداخرها
جنود النفس واعوانها - فرق ما بين ادراكات الانسان والحيوان -
استصلاح الارادة - أهمية تربية الوجدان - تقسيم أدب النفس
قال الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها
قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها) وقال تعالى (يا أيها
النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية) فدل تعالى
بهذا على ان تلك النفس الانسانية الكريمة هي التي عليها المعول
في الخطاب وسائر التكليف وانها القطب الذي تدور عليه عموم
أفعال الانسان أي اعمال الجوارح الخادمة ، وكل خطاب القرآن
الموجه الى القلب ونحوه « أنها لا تسمى الابصار ولكن تسمى

القلوب التي في الصدور « لمن كان له قلب أو التي السمع وهو شهيد » إنما يراد به النفس الإنسانية الجامعة لمبادئ الخير كله والتي عنها تصدر جميع أفعال المرء الإرادية وما يبطنه في سره ووجدانه (تلك المضغفة في القلب أو اللب التي إذا صلحت صلح سائر البدن) في كل أعماله ولهذا افرد آداب النفس وتربية الوجدان وتهذيب الأخلاق بالعبادة التامة عنده المتقدمين والمتأخرين وفي الأديان السماوية حتى تستلح آداب الجوارح في كل شؤون البشر الاجتماعية وفي آدابنا مماشراهل الإسلام مما قد أتيت على كثير من أمورها المهمة بالإيجاز في الأبواب السابقة من هذا الكتاب كما رأيت

والنفس والروح والقلب والعقل كلها كما قال الامام الغزالي في الاحياء وغيره قد ترد مترادفة لمسمى واحد هو (حقيقة الانسان) المدرك المالم المخاطب والمطالب، وعلاقة هذه اللطيفة من النفس الإنسانية واتصالها بالبدن وقيامها بشؤونها من الادراك والحس من أدق ما حارت فيه عقول الاقدمين وطارت له احلام المتأخرين فمن منتقب عن عملها بالدماغ ومن قائل انها بالقلب ومن حاك انها جارية في عموم البدن مجرى الدم في

العروق والحقيقة التي لا صرية فيها أنها « الانسان » ذلك الكون
 الأصغر الكادح الى ربه كدحاً فلاقه إما بنفس زكية وإما
 بأعمال مردية ، ولقد شرح الامام بن مسكويه من حال
 النفس وماهيتها وادراكها وحسها وحركتها في كتابه « الفوز
 الأصغر » ما فيه متسع لاهل البحث والتنقيب عن حقيقة ذاتنا
 الانسانية .

ونفس الانسان هي التي تحفظ عليه صور المماومات وهي
 التي ترد به سائر الموارد في الافعال الاختيارية وما يبطن من
 كمال انساني وقوي نفسانية اقتضتها الفطرة الحكيمة التي فطر
 الله الناس عليها لحفظ بقاء النوع بقاءه الأهواء والنزعات
 الشيطانية من جانبها فكانت في أحوال كثيرة شروراً وأضحت
 ودائل للنفس شائنة ولقد شرح الامام ابن قيم الجوزية في كتابه
 « الجواب الكافي » تسرب الشيطان والأهواء الى النفوس
 ومدخلها اليها بأسلوب غاية في اللطف تفسيراً لقول الله تعالى
 في القرآن المجيد « رب بما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك
 المستقيم ولا تينهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم
 شاكرين » فالأهواء والنزعات الشيطانية تأتي الانسان من

صوب كل عمل يأتيه أو قول ينطق به أو نظر يرمي اليه والشروع
أو الذنوب المستزمنة للمقوبات الشرعية والقدرية كثيرة ، أما
الشرعية التي إذا أُقيمت رفعت القدرية أو خففتها فهي كثيرة
تعليم من أنواع القصاصات والتعازير الشرعية في حد مثل الزنا
وشرب الخمر والسرقه والقتل ونحو ذلك بحسب الشرع أو القانون
المبني على صحيح مفهومه من قصد الزجر والردع والتخويف
للتستقيم لأفراد الهيئة الامور بما يوافق روح الشرع من جهة
وذوق العسر من جهة أخرى .

أما المقوبات القدرية أو المنوية فنوعان نوع على
القلوب والنفوس (وقد ذكر الله أمورها في غير ما موضع من
القرآن من الطمس والاعماء والترك في الضلالة غضباً ومخطأً
الخ) ونوع على الأبدان والأوصاف والاموال (وآثار هذه
ظاهرة في فقدان أرباب الشرور والفساد للصحة صحة الأبدان
وللشرف شرف السمعة وللأموال اسرافاً وبداراً) فالقوبة
القدرية تكون على هذا أشد على الانسان لان آثارها
الظاهرة في الدنيا شائنة ويتدرد صاحبها مع ذلك في الآخرة
القصاص الاخرى الشديد ولا سيما تلك الذنوب التي تتجم

عن معاملة الناس بالخيانة والنش والسماية والتميمة والغبية
واغتيال الحقوق لان الذنوب مهما خفيت وصغرت لا تخلو من
عقوبة البتة ولكن لجهل العبد لا ينظر بل لا يشعر بما هو
واقع فيه من عقوبة للفظة الراكبة والنغوية الشيطانية المستحكمة
التي تجعله بمنزلة المخدر والسكران ولكن للسكر فكرة
وحسرة واي حسرة ، فيخاق بالماقل ان يستحضر المقوبات
التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب ويجوز وصولها اليه
وهذا انجم واسطة لهجران النفس الرذائل واتقائها المساوي
والشرور ولمثل هذا فليعمل العاملون

فالنفس هي العاملة واعضاء البدن مسخرة لتلك النفس
التي يعبر عنها « بأنا » فهي جنودها الظاهرة واعوانها المطيعة
من الحواس الظاهرة كالبصر والسمع والشم والذوق واللمس
ثم الحواس الباطنة من الحب والبغض والادراك وهذه وتلك
كأها جنود للنفس واعوان لها بواسطة أعضاء البدن من اليد
والرجل والعين والاذن والانف والقدم والدماع والاعضاء وهي
إنما تعمل للنفس تحت إمرة النفس فتجلب لها على مقتضى
ذلك إما الخير اذا اعتمدت النفس على حكم العقل الرشيد وإما

الشر إذا كان الدافع هو الهوى لفساد حال النفس وهي كلها
 إنما تسمى بها شهوة النفس وتسخر من الأمرها في تحصيل اسباب
 المعاش والملاذ النيوية في هذا العالم الأرضي فبمدافع الشهوة
 المودعة في النفس تسمى الأعضاء في تحصيل الأقوات والأزواق
 وسائر أمتعة هذه الحياة الحسية والمعنوية وبدافع «المنضب»
 المودع الى جنب الشهوة في هذه النفس يحصل النور والدفاع
 عنها والحفظ لها وبالادراك والعقل المسيطر على كل قوى النفس
 والمهيمن عليها يقع التمييز والتمفرقة أى العلم بالنافع والعلم بالضار
 قال الامام أبو حامد الغزالي في الاحياء ما تحصله ولقد
 يعبر عن هذه القوى أو الجنود الباطنة للنفس من ذلك الباعث
 والمستحث في الشهوة طلباً لجلب النافع ودفع الضار «بالارادة»
 الاول و«بالقدرة» الثاني لانه المحرك للجنود النفسانية المبتوثة
 في الاعضاء ولا سيما العضلات منها والاوراق أما القوة الثالثة
 قوة الادراك فهي المدركة العارفة بالاشياء بواسطة وسائله
 وآلاته من الحواس الخمس الظاهرة البصر والسمع والشم
 والذوق واللمس وهي مبتوثة في أعضاء معينة مرتبطة بالاعضاء
 الرئسة التي تسكن قوى الادراك الباطنة من تجاوبف الدماغ

وتلايف جوهره المكنون من الخ الانسانى واتى شى مصدر
 حركات البدن كله وسبب ادراكه العظيمة و « مستودع »
 معاوماته الثرية ومستصدر ارادته وقدرته وتنفيذها بواسطة
 سائر أعضاء بدنه وشى مكان « نقد » افعاله وميزان اعماله
 بواسطة ذاك الوجدان الانسانى الشريف وضميره المنيف أو
 بعبارة أخرى عقله الرشيد الذى يميز بين الخبيث والطيب
 والعتى والسعين والخطأ والصواب والخير والشر فاذا وفق
 الانسان الى اگساب هذا الوجدان وذلك العقل مبادئ
 الاشياء على حقيقتها واستفادها على صحتها وما يتجرى فيها
 لبوغ السعادة الحقيقية وصرف لحظاته وخطراته وامياله ومحباته
 الى الخير المحض استصلحت ولا ويب كل احواله واعماله
 واستقام عوده فصلحت من وراء هذا احوال المجموع فقلت
 المماضى والشور وتجنب مسترذل الذنوب والعيوب واتمد
 افاض النزالى وابن قيم الجوزية فى كتابيهما السالف ذكرها
 فى هذا المعنى بما لا مزيد عليه ، والخلاصة ان الانسان قادر
 بما وهب من قبل الخالق تعالى من موهبة العقل والادراك
 والاذواق الدقيقة العالية على اصلاح احوال نفسه المودع فيها

كل اسباب الخير وكثير من ذواعى الشر

وانه لئن شارك الانسان كثير من الحيوانات العالية في الادراك كما يتبين للناقد الحكيم في سلائق الحيوان وطبائمه فلقد يرى القرد الصغير الثعبان مثلاً فيرجف منه ويفزع ، وترى الشاة الصغيرة الذئب فتضطرب وتهرب فهذا الادراك أو الشعور الفريزي وان شارك في كثير منه الحيوان الانسان الا ان مما يختص به الانسان وهو المشرف خلقاً وخلقاً إنما هو الاحساس الباطني المبني على الامور العقلية الحسية التي تدرج في ارتقاها العقل بارتقاء الانسان بكيفية مخصوصة وتقدم فيها بما وهبه الله من سمو المنزلة والقوة العظيمة التي أشرنا الى مستودعها العظيم من نفس الانسان وتركيب عقله فان هذه أمور وراء المحسوسات وما في حكمها من السلائق الحيوانية ولا يشارك فيها الحيوان الاعجم الانسان مهما رقى بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل البشري اذ يحكم هذا العقل الكريم مثلاً انه لا يتصور ان يكون الشخص في مكانين في حالة واحدة وهذا حكم منه على كل شخص ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على سائر الاشخاص

إنما جاءه بطريق الحل والقياس الصحيح وهو زائد على ما أدركه
 بالحس وإذا فهمت هذا في العلم الظاهري الضروري للعقل
 البشري فهو في سائر النظريات المدركة للانسان أظهر وأجلى .
 أما الإرادة وما ينبغى أن تستصلح له من وراء العلم
 بالمبادئ على حقيقتها فإنه إذا أدرك المرء بالعقل عاقبة الأمور
 وطريقة الصلاح فيها أنبعث عن ذاته شوق ورغبة وعزيمة
 بالميل الفريزي الى الخير المودع فيه الى جهة المصلحة والى تعاطي
 أسبابها وذلك غير ارادة الشهوة العمياء وبعبارة أخرى غير ارادة
 الحيوان الاعجم بل يكون ذلك على ضد الشهوة أو بالتالى بحسب
 ما هو الصواب فيها لما يجد من الزواجر النفسانية المستفادة
 من صحة المعلومات وحسن الافواق التي صارت له ملكة
 راسخة بحكم العادة في مجتمعه واستشعر وجدانه بفضلها وثمرتها
 ولذاتها الصحيحة .

وإذا تقرر هذا علمت مقدار أهمية تربية النفس وإشعار
 الوجدان منذ الصغر بمبادئ الاشياء على حقيقتها وحقائق
 الأمور على أفضلها وانكشف لك المعنى السامي المودع في قوله
 تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » فهذا

بخصوص ما أودع الباري تعالى في النفس البشرية من القوى
وركب فيها من الشهوات للحكمة المطلقة ثم « دقيق معنى
ما عطف عليه بقوله عشر من قائل « قد أُنْفِخ من زكاتها وقد
خاب من مساها » فهذا اشعار وتذنيه بضرورة القيام بتربية
النفس وتهذيبها حتى لا تخيب ولا يشق المرء بها في الدنيا
والآخرة ولتمام الرحمة بعث تعالى الانبياء والرسل الكرام
في الأمم مبشرين ومنذرين « لئلا يكون للناس على الله حجة
بعد الرسل » ولقد تقدم في الحديث الشريف « بعثت لاتم
مكارم الاخلاق »

وتربية النفس تنقسم الى قسمين قسم يتعلق بالجوارح
ووظائفها وقسم يختص بما يقوم خاصة في السرائر والضمائر
وتظهر مع ذلك آثاره بواسطة الجوارح وفي أعمالها - وكل
اناء بالذى فيه ينضح - وهذا القسم أهم من الاول بل هو
الاصل في الباب وانه للغرس الذى يثمر كل الثمار إما فاكهة وأباً
وإما حنظلاً وشوك قتاد ، فاذا صلحت تلك المضغعة من النفس
أو القلب صلحت كل أعمال جوارحنا وان قات « واذا فسدت
منا القلوب والنفوس فهذا لعمرى ما يفسد معه كل شأن

للإنسان وهما تعلم وسما ومنها ارتفعت منزلته فانه ليكون الساقط
 في مهواة من الضعف والشر تقهر آثاره عليه في الدنيا وانه
 ليترصده عليه في الآخرة كما توعد الله تعالى المجرمين عذاباً
 شديداً ولهذا قال عمر بن الخطاب «تأدبوا ثم تعلموا» وهو لا يعني
 ولا ريب بذلك غير أدب النفس قبل أدب الجوارح:

هذا ولقد تقدم في الأصول السابقة جملة مما يختص
 بادب الجوارح في الاعتقادات والعبادات والمعاملات الى آخر
 ما صر بك على مقتضى قواعد ديننا الاسلامي الحنيف وأصول
 آدابه السامية وما جرى به حكمه الظاهري فيها أما هذا القسم
 من « أدب النفس » الجليل القدر العظيم الخطر فيقسم الى
 قسمين قسم يتعلق بشأن الخلق فيما بينهم لتصالح به كل أحواضهم
 وقسم يجب ان يتحلى به المرء مع الخالق تعالى مصدر جميع الخيرات
 ومفيض كل النعم.

رب ان الهدى هداك وآيا تك نور تهدي به من تشاء



﴿ القسم الأول ﴾

﴿ أدب النفس مع الخلق ﴾

قوى النفس الحيوانية والامتازة - العقل الرشيد وسلطانه في
 الدفع - مصادر ادب النفس والعقل - الاخلاق وتهذيبها - التربية
 النفسية - شؤم الذنوب والرذائل - آثار الذنوب اللاحقة - امهات
 الفضائل واطرافها من الرذائل - طائفة من الفضائل - الاخلاص -
 اداء الامانة - البشر - الترفع - التواضع - الحلم - الرحمة -
 السخاء - سلامة النية - الشجاعة - الصبر - الصدق - القناعة -
 كتمان السر - المحبة والود - المنافسة - الوفاء - الوقار - جملة
 الاخلاق الفاضلة ومحاسنها - استئصال الرذائل - رياضة النفس -
 هل يمكن تغيير الخلق - مطية النفس .

ترك نفسك يوماً وهوها سعى لها في رداها

لقد ضحى الانسان لكمال خلقه الحيواني ثلاث قوى كما
 تقدم الشهوة والغضب ثم حب الذات أي الاثرة لحفظ النوع
 وامتاز عن باقي جنس الحيوان وفضل وكرم من بينها بتام العقل
 أو عظم الادراك كما سلف ، فهذا العقل الخصب بنا سلطان
 حاكم وباقي القوى مسخرة له فمن غلب على عقله شهوة شهواته
 البهيمية فقد التحق بافق البهائم الموصوفة بالشراسة (اولئك
 كالانعام) ومن غلب غضبه عقله فقد صار الى مرتبة السباع

الكاسرة والحيوانات المفترسة ومن خبثت نفسه وفسدت
سرائره واستعمل عقله واستخدمه في المكر والخداع والغش
والرياء (يخادعون الله وهو خادعهم) فقد انطوى على المردة
من الشياطين ، ومن ساد عقله الرشيد كما هو المراد منه كل
قواه الاخر فجري في تسخيرها بالاعتدال والحكمة فاز بكمال
الانسانية واتصف بأجل مبادئها وأجل صفاتها الممتازة وصار
من ثمّ اخرى بأن ينتظم في سلك الملائكة المكرمين والبررة
المقربين من الله تعالى «واولئك هم المفلحون» في الدنيا والآخرة .
وإذا كان هذا العقل الرشيد هو السلطان الحاكم المدبر
لعموم الافعال الانسانية بالحكمة والسداد لهذا كان قابلاً ومستعداً
تمام الاستعداد لأن يؤتي الحكمة ولأن تنطبع فيه على اكمل
صورة صور المعلومات ووهب لهذا قوة التمييز والتفريق بينها
بحك النظر الصحيح لتلك الهداية الصمدانية والنورانية الربانية
المودعة فيه وهي التي ترتب المعلومات وتزواج بينها وتقارن
وتبنى الاحكام وتحصل النتائج متسلسلة والافكار متناسبة آخذاً
بعضها برقاب بعض أو مختلفة بحكم اختلاف العلل والاسباب
ولهذا كره الوقوف على المعلومات الواحدة والاسباب الواحدة

بالتصلب فيها خصوصاً فيما يتعلق بالمعلومات المستفادة بالتقليد
الاعمى دون اطلاق العقل وتوسيع الفهم لارتياض الحقائق
واقتناص الشوارد لان هذا يوجب الجمود بل التفتقور لرسوخ
الامور التقليدية ونشرها العقول فلا تقدر على الخلاص من
ربقة الاسر والضيق وبالتالي لا تتوق ولا تنشط الى الاخذ بما
هو من مزايا اللب وفضائل هذا العقل البشري وتطالب العلماء
وحسن الاختيار بحسب المقتضيات والظروف العمرانية
التي وان حصلت بالتدرج لكنها تظهر فيها الفروق العظيمة
بالنسبة الى احوال الجامدين بالقياس على احوال غيرهم من
الهيئات التي تشهد الرقي ولا تأسر نفوسها الامور التقليدية مما
ذمه الله تعالى في حال الامم التي قالت « انا وجدنا آباءنا على
امة وانا على آثارهم مقتدون » وهذا باب واسع قد يطول فيه
الشرح فانرجع الى المقصود بالذات

انقد يكسب هذا العقل الرشيد بموجب الادب الاسلامي
حقائق المعلومات والمعارف النفسانية لينتفع المرء بها دنيا واخرى
في نفسه وجوارحه الاخذ بما جاء في الكتاب والسنة وفهم
معانيها ثم استخدام العقل فيما بالتدبر والتفهم ومعرفة ما ينطوي

طبي هذا من حكيمة وأسرار وآداب ورقائق وهذا يقتضي دراسة مبادئ العلوم العقلية كما يقتضي الاستعانة بالمعارف الآلية وما الداعي الى عزل العقل البتة اكتفاء بالتقليد الا جاهل ، وما المكتفي بمجرد العقل في مثل تلك الاحوال دون التنوير بانوار الكتاب والسنة الا مفرورا . وجملة القول ان العلوم العقلية والطبيعية فيما يقصد بها هاهنا لفائدة البشر كالأغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض قد ينقص بالغذاء اذا فاته الدواء فلماذا كانت امراض النفوس لا سبيل الى معالجتها على احسن حال وفضلها الا بالادوية المستفادة من طب الشريعة وآدابها المستنبطة منها بالبصائر النيرة في امور الاعتقادات والعبادات والاعمال لتنظيم احوال النفوس وتصالح وتنصف بالخير قلباً وقالباً ومحيط مع ذلك بالاشياء على حقيقتها الامر الذي يعود نفعه على المرء في نفسه وهيئته ومئات عمله فيها وارتباطه بها .

هذا ما يختص باكساب العقل لدينا المعلومات الشرعية والعقلية اللازمة له حساً ومعنى والتي هي كالأساس للتربية وأمر ما يسمونه تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق التي افرق فيها لاهيتها الى فرق ومذاهب ولا غرو وهي اول متحرى الباب

باب ادب النفس عند سائر الخلق. ولقد عرفوا الخلق بانه عبارة عن الهيئة الراسخة في نفس الانسان التي تصدر كل الافعال عنها بسهولة من غير ما حاجة الى كبير ففكر أو روية لسابق الاعتياد عليها بالتكرار للنفس فيها وانفها لها فان كانت تلك الهيئة في النفس بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا بحسب العرف سميت « الخلق الحسن » واذا كانت بعكس ذلك دعيت « الخلق السيء » وانما اشترط الرسوخ لتلك الصفة أو الهيئة ليحکم برسوخ الملكة والعادة واسم الخلق ولا عبرة بالاعراض الطارئة سلبا وايجابا في الافعال إذ العبرة بالاتصاف الحقيقي الملازم للنفس ، فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وجمالها وجلالها في كمالها الاتصافي فيما ترشح من انانها على سائر القوى وافعال الجوارح بسهولة . واذا كان الجمال الظاهري للصورة الادمية يقتضي تناسب أعضائها واعتدالها فلجمال الباطني مثل هذه الخلال أيضا من حيث لزوم التناسب بين قواه حتى يتم البرء حسن الخلق ، وهاته القوى اذا اعتدلت وتناسبت حصل ولا ريب حسن الخلق أو اعتدال المزاج أو ملكة الاذواق السليمة ولحسن حظ النفوس انها قد جبت

قابلة لهذا الحال من قبول التهذيب متى ما مهدت لها وسائله
وتدرجت عليه شرعياً وعقلياً على الوجه الآنف

وهذا ليس بالذي ينال على أحسنه الا بالتربية والترويض
على محاسن الاخلاق وكريم الشيم لكي تخدم سائر القوى ذلك
السلطان من قوة الفكر والعقل الرشيد فتحسن من ثم الارادات
وتمتاز الرغائب ، وأفضل ما يكون من هذه التربية ما يقع
منها في الصغر وزمن الحداثة ولدانة العود وهو الامر الكريم
الذي أجمع على جودته وضرورته السلف والخلف لان نفس
الصبي جوهرة نفيسة وجمانة خالية من كل نقش واثار لصورة
ما فهو لهذا أسرع قبولاً واسهل ميلاً لما يمال اليه عوده، فان
عود الخير بالافعال والقدوات الحسنة العملية في العائلة والمجتمع
وعلم نظرياً وبين له حكمه وحكمته سعد في الدنيا والآخرة
وشاركه أبواه ومعلموه في الاجر عند الله ، وان اعتاد الرذائل
والشرور وأهمل شأن تقويم نفسه شقى ووقع في الآثام والذنوب
وكان الوزر في رقبة أبويه كما في رقبة بل في رقبة الهيئة الاجتماعية
التي رضيت لاحد اعضائها به

وشؤم الذنوب ومصائب الرذائل النفسانية لها في النفوس

آثار رديئة من حيث عرقلة الأحوال ومغاب سبيته في سائر
الشؤون والأفعال فضلاً عما يتربص أصحابها من القصاصات من
الشرع القائم والوعيد بالعقوبات الأخروية مما يظهر أثره في
الحياة الدنيا أيضاً وما استندفت النعمة بمثل الطاعة وتحسين
الأعمال والأخلاق مما هو مجلبة كل خير كما أن أضرار ذلك
من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر ، وقد رتب سبحانه وتعالى
حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور والسعادة
فيهما في كتابه العزيز على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط
والمعامل على العادة ، فالأمر صريح والشأن ظاهر في ترتيب
الجزاء بالخير والجزاء بالشر لصالح أحوال البشر في دنياهم
وتمام سعادتهم في آخرهم (الآيات القرآنية في ذلك كثيرة)
ومن الجهل الفاضح والشر الواصل ارتكاب الذنوب ومغالطة
النفس في التلوث بالذائل انكلاً على عفو الله ومغفرته والتسويق
في أصراً لصالح حال النفس العائد نفعه على ذات المرء فالتوبة
النصوح وقوة الإرادة بالرجوع عما عنه نهى وزجر أمر صريح
الوجوب بنص الكتاب والسنة السمجة

ولقد عدد ابن قيم الجوزية الآثار القبيحة للذنوب والذائل

اللاحقة آثار اضرارها بالقلوب والنفوس والأبدان وكل الشؤون الاجتماعية في الدنيا فضلاً عما هو مرتب عليها من القصاصات في الآخرة فمنها حرمان العلم وفساد العقول والنفلة في الشؤون، ومنها ظهور الفساد في الأرض وقلة البركة في الأرزاق والأحوال، ومنها حلول النقم والهوان والذلة والصغار والاحتقار من الناس، ومنها التخالف القوي وتفكك الروابط بين أفراد الأمة هذا فضلاً عن العقوبات المعنوية في النفس والوجدان من حقوق النعم والكدر وحلول الأمراض البدنية والنفسانية ثم قطع الأمداد والطرده من حضرة الله ثم العقوبات الأخروية من العذاب ودخول النار إلى آخر ما فصل وبين وشرح من ذلك ابن قيم الجوزية والامام الغزالي وغيرها

أما محاسن الأخلاق أو الفضائل النفسانية فيجب أن تشهد على وجه عام لعموم أبناء الأمة بموجب المبدأ الإسلامي وبالحدِيث الشريف « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والآثار في الباب باب وجوب التحلي بالفضائل ومكارم الأخلاق في كل الشؤون وفي جميع الأحوال مشحون بها الكتاب والسنة ناهيك عما هي لازمة له في شؤون البشر بموجب كل المبادئ الإنسانية

والاحوال الاجتماعية ايسعد البشر ويضطروا فيما هم بصدده من
الاسباب والاعمال مما يجعلهم رحماء بينهم متضامنين متكاتفين
في الشهور والاحساسات وكل العواطف الكريمة الفردية
والقومية حتى تمتد لهم أمور الحياة وتصفو لهم الموارد من
الأكدار والخبثات قياماً بالواجب الانساني لنوال الكمال
الانساني وتحريراً للعقل والفضل الانساني لان حد العقل كما قال
ابن حزم استهال الطاعات والفضائل وتجنب المعاصي والذائل
ولقد نص الله تعالى في غير ما موضع من كتابه على أن من عصاه
لا يعقل ومن شر العصيان الاتصاف بالذائل الاجتماعية بين
البشر خصوصاً فيما يتعدى ضرره الى الغير والدين المعاملة

وأهمات الاخلاق التي ذكرها اخلاقو الاسلام^(١) اربع
« الحكمة » و « الشجاعة » و « العفة » و « العدالة » قال الشيرازي
وهي أوساط طرفاها البعيدان وذيلة « فالجزيرة والبله » طرفا
الحكمة و « الأهور والجبين » طرفا الشجاعة و « الشره والجمود »

(١) يراجع أيضاً على هذا الفصل كتاب الاخلاق للشيخ محي

الدين بن العربي وتهذيب الاخلاق للحكيم ابي زكريا يحيى بن عدي
وتهذيب الاخلاق لابن مسكويه

طرفا العفة و « الجور والمهانة » طرفا العدالة . ولكل من هذه الفضائل والرذائل فروع وحدود وتعريفات وطرق استفادة واكتساب وطرق علاج في الاضداد وطرق لدوام حفظ صحة النفس كما تحفظ بالوسائل الصحية الحسية الابدان وتوقى من الوقوع في الاضرار والاصاب . ولقد استوفى ذلك كله في كتب الاخلاق الاسلامية وقال الامام الراغب الاصفهاني في كتابه الدريمة الى مكارم الشريعة حكمة نفيسة في اكتساب الفضائل قال « حق الانسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقاً ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء أمكنه ان يبرز ذلك فعلاً أو لم يمكنه وذلك بان يكون على هيئة الاسخياء والشجيمان والحكماء والمدبول وإن لم يكن ذامال يبذله ولا عرض له مقام تظاهر فيه نجاته ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيها عدالته فقد قيل لبعض الحكماء هل من موجود يعم الورى فقال نعم ان تحسن خلقك وتنوي لكل أحد خيراً وقال عليه الصلاة والسلام « انكم لن تسموا الناس باموالكم فسموهم باخلاقكم »

قلت ان للفضائل فروعاً ولوازم ولقد عدوا منها ما ينيف

على العشرين خلقاً حسناً لا يمكن للانسان ان ينكر فضلها في كل أين وأن أو أن يقدح في نفسها وعمرتها أو يدعي عدم لزومها والغناء عنها في الحياة الادبية والاجتماعية وإن تفاوتت فيها الهمم وتباينت التزامهم بعد ان أجمع الاولون والآخرون على ضرورتها ووجوب تحريمها من جهة العقل ذلك الذي هو حد الفضائل ومن جهة الشرع ذلك الذي يهدي الى الحسن وهالك هي مع اضدادها مرتبة على حروف المعجم ليسهل تناولها والاستدلال عليها .

الاخلاص — هو عماد كل الأعمال واكرم أس في جميع الاحوال فمن أخلص في عمله وفي حاله كله بين أبناء هيئته كان الناجح في كل شؤونه الظاهر برغوبه الظاهر بين اخوانه باحسن الفضائل وأجمل الشيم الاجتماعية التي يجب ان يتحلى بها الانسان لتصفوله موارد الحياة والموارد الانسانية وفي الحديث الشريف « ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وسيأتي مزيد بيان لهذه الحلة الكريمة في قسم أدب النفس مع الخالق

أداء الامانه — قال الله تعالى يصف المدوحين بهذه

الفضيلة عنده « والدين هم لآماناتهم وعهدهم واعون » وأداء
 الامانه قرين الوفاء الآتي ذكره وإنما يزيد عليه بأنه التعفف
 عما يتصرف فيه الانسان من مال الغير باحد التصرفات الممكنة
 من مثل الوكالة والوصاية والقيامه على القصر والمعتوهين والسفهاء
 وتولى الاوقاف والوظائف العمومية ونحو ذلك فكل هذا يدخل
 تحت التعفف وأداء الامانه فيه في باب ادب النفس الجميل ذنبياً
 ودينياً وما الحيانة في مثل تلثم الاحوال ونحوها الا الشر المردي
 في النهاية بصاحبه ، المفسد عليه جميع احواله في المجتمع ، المثلم
 لشرفه وصيته ، المشهر له باحط الاوصاف . وكفى بالحيانة اثماً
 مبيناً وعاراً وشناراً قد لا يحصى ولقد جاء في الحديث الشريف
 « إن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا أتمتم واصدقوا
 إذا حدثتم واحسنوا جوار من جاوركم »

البشر وطلاقة الوجه — هو ذلك الخلق الكريم الذي
 يكسب صاحبه محبة الخلق وإفهام له وعظفهم عليه وهو خلق
 مستحسن من جميع الناس يكسبهم كل خير بمكس عبوسة
 الوجه وتقطيعه — ولقد كره في الحديث ان الله يكره المعبس
 في وجه اخوانه — الدال على سوء الخلق وشراسة الطباع

والكبر غالباً ، والبشر وطلافة الوجه من أجل أنواع البر قال
الشاعر :

لمرك ان البر شيء هين وجهه طليق وكلام لين
الترفع والتصون — هما من أجل الخلال البشرية ويجريان
في تجنب الهزل والقبیح وذكر الحنا وثقيل الازاح وسخيفه وخفة
الاحلام ونزق النفوس والانتقباض عن ادنياء الناس في المعاشرة
والمخالطة وفي الترفع وعزة النفوس وشمم الافئدة والتحرز من
الميشة الزرية واكتساب المال وطب الحاجات بالمداهنة والتمق
والرياء والخداع فان هذا كله وأمثاله مصيب شائن لا يأتيه الا
سفلة الناس وأصحاب النفوس الدنيئة وبذل ماء الوجوه وتعفير
الخدود ولقد جاء في ذم ذلك آثار جليل وحكم حكيمة واقوال
للسلف وامثال غاية في السداد فيجدر بالمرء العاقل والمسلم
المتأدب بأدب الاسلام بل بالأداب المصرية ان يصون نفسه
ويترفع بخلقه وأن يزن اموره بالحكمة ويجري في شؤونه بالعقل
مترفعاً متصوناً وهذا لا ينفي مبدءاً التواضع الآتي . لانه بون
ما بينهما

التواضع — خاق جميل ممدوح وخلة شريفة لا تزيد

صاحبها إلا رفعة في الهيئة وعجبة ومودة بين الناس لأن ترك
المباهاة بالجاه الحسي والعنوي أسر محمود من ذوي الجاه
خصوصاً أما الكبر والظرسية والاستهانة بالناس والترفع عليهم
بحق وبغير ما حق يوجبه على نحو ما سلف في الترفع والتصون
المطلوب عن الأحوال المزرية مما يجعل الناس يزدرون المرء
ويعتقونه من أجله فأمر مضر به ضرراً يلحق لأن من ينتفضه
الناس ساءت أحواله فضلاً عن أن المرء بالتشبث بالكبر
والإعجاب بالنفس يبعده ذلك عن اكتساب الآداب والمحامد
الصحيحة ومن لم يستزده منها بقي أبداً في نقصه وانحطاطه دون
نوال الكمال وما أخربه غير كبره وصفه ولقد جاء في مدح
التواضع وضم الكبر آثار جليلة وآيات بينات من الكتاب والسنة
وآثار السلف واساطين الحكمة بما فيه أجل الموعظة الحسنة
جاء في الحديث الشريف « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة
فتواضعوا يرفعكم الله تعالى، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا
يعزكم الله تعالى، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا
يرحمكم الله عز وجل » وقال تعالى « ولا تصبر خدك للناس ولا
تمش في الأرض مرها »

الحلم — قال الشاعر :

بحلم وعلم ساد في قومه الفتي وكونك اياه عليك يسير

فالحلم — والحلم بالتعلم كما في الحديث الشريف من اكرم
الخلال وهو اصل من اصول الدين وقد وصف الله تعالى به
نفسه وأتى به على أنبيائه فهو من أجمل عزام الصبر واجل
فضائل العقل والاناة والتوعدة المحبوبة وعلو الهمة الآتي
ذكرها، ولقد حدوا الحلم بأنه « ترك الانتقام عند شدة
الغضب مع القدرة عليه » وهو حال محمود ما لم يؤد الى ثلم
الشرف أو فساد الامور ويضاد هذا الخلق من الرذائل « السفه »
وكفى بهذه الاسماء والنعوت من السفه والسفاهة والسفيه شيناً
والسفه سرعة الغضب والطيش من يسير الامور والمبادرة
بالانتقام والطيش أو الحق والسب والشتم وياله من خلق ذني
وسفالة في النفوس النبية الجاهلة شائعة في الطبقات النازلة
خصوصاً . فاستصحاب الحلم والتعلم والتوعدة والتثبت بذلك
كله إنما هو من أفضل الاحوال الجليلة والاخلاق الجميلة التي
يجب ان يتحلى ويتخلق بها في الهيئة الاجتماعية . ولقد اشتهر
عن كثير من ذوي المقامات الجليلة أنهم ما اكتسبوا المجد

والسؤدد والمدح والثناء إلا من استتمتعوا بهم هذه الفضيلة فضيلة
الحلم فظفروا بها ونجموا في أعمالهم وتديراتهم كما اشتهر عن
معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وغيره كثير

الرحمة — وقد وصف الله بها نفسه في كثير من المواضع
في القرآن المجيد والذكر الحكيم فيجدر بالانسان ان يتصف
بالرحمة ذلك الخلق الكريم والفضيلة الانسانية العظيمة من
الشفقة والحنان والمطف على الاخوان ومع سائر أبناء جلده
بل عامة مخلوقات الله تعالى فالشفقة مطلوبة والرحمة واجبة
والراحمون مرحومون من الرحمن مشكورون من الناس .
والرحمة أوسع في النفوس اذا كانت من الاكابر الى الاصغر
ومن الاقوياء الى الضعفاء وفي الامة بين بعضها والبعض مما
هو من احسن وأجمل مظاهر التضامن والتضافر للتماسك
المطلوب فيرحم انقوي الضيف ويوقر الضيف الكبير ويواسي
الواجد المعهم . أما التسوية والشراسة والاثوة والتخاذل والتجافي
وعدم الرحمة والشفقة فمن الخصال المحققة والفعال المضیعة التي
لا توجب لصاحبها في الهيئة إلا ولا ذمة ولا جزاء ولا شكوراً
فاذا ما منيت الامة بعدم الرحمة وبلت بالتقاطع والتدابر وغطرت

النفوس (خلافاً لما جاء في الحديث مثل المؤمنين في توادهم
 وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر
 الاعضاء بالسهر والحلمى وفي الحديث الآخر المسلمون كالبنيان
 يشد بعضهم بعضاً) فاذا ما نيت الامة بذلك فلن يكون بين
 افرادها غير الكراهة والبغضاء والحسد والسخط وان وجد شيء
 من الميل والمطف فبطريق المداعمة والرياء نفاقاً وليست تكون
 في شيء من كسب الاحترام الصحيح والمحبة الحقيقية المبنية على
 تبادل المحبة بالاخلاص والصدق الآتي من قبل الرحمة الحقيقية
 والناج عن الشفقة والحب الجالس المتبادل من أجلها
 بالاخلاص . فمن خص بهذه الخلة الكريمة من الرحمة والشفقة
 فقد فاز بأجل شعور للانسانية وحظى من أجل ذلك بين أهله
 وأمه وعهدهم أبناء هيئته بأجل الأرب وأفيد الآداب
 الاجتماعية .

السخاء - هو بذل المال عن قسوة في حقوقه ووجوهه
 الاجتماعية المفيدة وقد تقدم شيء من ذلك ، وهذا الخلق
 مستحسن ما لم ينته الى السرف والتبذير فالاعتدال واجب في
 كل الاحوال كما ان البخل والشح والضمن يمد يد الاعانة والرفد

والمساعدة في وجودها المطالبة شرعياً واجتماعياً منموم لانه يحرم الانسان مما لا ينبغي أن يحرم نفسه منه في هيئته في حال ميسرته وغناه ومقدرته على اكتساب المحامد والمفاخر الاجتماعية بواسطة ماله بين هيئته ولله ما أجزل معنى الحديث الشريف « السخي قريب من الله قريب من الناس والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس » ولا ريب أنه يقصد بهذا القرب ما أشرنا اليه من الجهة النفعية المثمرة للمحامد

سلامة النية وحسن الطوبة - وهو اعتقاد الخير لكل الناس ومعاملتهم بقلب سليم وهو من الاخلاق المرضية الواجب التحلي بها دينياً أيضاً وتنبك عن الحبث والقبيلة والمكر والخديعة تلك الصفات التي هي من شر ما يجنى المرء بها على نفسه في سائر المعاملات وان ظهر له أنه الراجح الناجح بتلك الخصال الذميمة بادئ بدء لكن لا يلبث من يتصف بها ان يرى الناس وقد علوا بنجث طويته وقبح سريره احتقروه وازدروه وتجنبوا معاملته بل ربما كالوا له بما يكيل لهم به فلا يعود غالباً ينجح بينهم او يظفر منهم بطائل الا بمقدار ما ينتفع به منه في

المجتمع فضلاً عن الانتقاص الأدبي والسمة الرويثة « ولا يحق
المذكر السيء إلا بأهله »

الشجاعة—الشجاعة الأدبية من خير ما تتحلى به النفوس
وتتجج به كل الشؤون إذ لحوار العزيمة والجنبن الأدبي ضررها
البليغ في نفوس الأفراد بما لا يمكن حصره ، والشجاعة
الحسية من أفضل الصفات لان الثبات عند المكاره والنوازل
أمر مطلوب لسلامة الحياة البشرية والنود عن الحياض ولقد
قال الشاعر العربي القديم

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يضرس بانياب ويوطأ بمنم
وليس للمرء أفضل من سلاح الشجاعة مادامت غير
بالفة حد التهور وكذلك الحال في الشجاعة الأدبية من حيث
قول الحق والصواب غير هباب ولا وجل إنما يكون بمراعاة آداب
لها وشروط تبعاً للنظام المرعى ولقد كان للمسلمين هذه الملكة
ملكة الشجاعة الأدبية على أشدها في الاعصر الاول ولكنها
تلاشت من نفوسهم شيئاً فشيئاً تبعاً للتقلبات والتغيرات
الشديدة التي أبعدت النفوس عن مبدأ الحرية والمساواة
الاسلامية حتى أضحت في أخريات الايام كلاً شيء الأمر الحري

بان يرجع اليه طلباً لمظاهر الحياة الاجتماعية الصحيحة وحرية
 الافكار الفريدة وفي الحديث على هذه الشجاعة الادية جاء في
 الحديث « لا ينبغي لا صريء شهد مقاماً حق الا تكلم به فانه
 لن يؤخر اجله ولن يحرمه رزقه »

الصبر - الصبر عند الشدائد وهو خلق مركب من
 الشجاعة والوقار ومستحسن جداً في كل الامور اما الجزع والقلق
 والاكتار من الاضطراب بحيث يصير المرء كما قال الشاعر
 كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق
 فليس بمفيد صاحبه ولا هو بالمفنى عن الصبر فتىلا في
 التسدير واستنباط الحياة بالثبات والاجتهاد بالحكمة لدفع ضرر
 الشدائد وتذليل المصاعب واحتمال المكاره والتماس المخارج وهذا
 لعمرى ما يسميه اخلاقيو العصر بالثبات والثبات والصبر مترادفان
 هنا على ان للصبر فضلا في كل الامور وهو مطلوب دينياً في
 كل الاحوال وعقباه محمودة في احتمال تصارييف الاقدار الجارية
 على الانسان التي بعد الجزع فيها عصياناً وسخطاً على مقدور الله
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « في الصبر على ما تكره خير
 كثير » وقال « الصبر والاحتساب خير من عتق الرقاب ويدخل

الله صاحبهن الجنة بغير حساب» وقال بعض الحكماء «الصبر

باب العز والجزع باب الذل» وقال الشاعر الحكيم

الصبر أفضل ما اعتصمت به ولنم حشو جوائح الصدر

والصبر صبران صبر على الأقدار وصبر على الأعمال وسيأتي

زيادة شرح على الاول في قسم أدب النفس مع الخالق تعالى .

الصدق - والصدق منجاة من العطب - وهو ذلك الخلق

الكريم والحلة الجميلة من الاخبار بالامور على حقيقتها والجري

في كل الشؤون بموجب أدبها والمؤمن كما في معنى الحديث

الشريف اذا قال صدق واذا وعد أوفى - والصدق مستحسن

من كل الناس وخليق بمن يتصف به وينتشر ان يكتب

احترامهم وثقتهم به واجلالهم لمقامه مقام لسان الصدق أما

تقيض هذه الحلة من الكذب فمن اقبح الرذائل واخس وأردأ

انحصال المفسدة الاحوال المضيق للحقوق في مثل شهادة الزور

والبهتان والحنف الكاذب فانها كلها حرام ومن أشأم الخصال

التي يتخلق بها امرؤ سفلت نفسه وانحط خلقه ، ويدخل في

باب هذه الرذيلة بل هو من شر الكذب « النية » و « النيمة »

« والسعاية والوشاية » ويالله ما أقبحها وأسوأها من صفات

ذنباً وغصال رديئة تعرف بالضرر على المتصف بها اكثر مما قد
تضر بمن عداه وكتب التاريخ والمحاضرات الاسلامية مملوغة
بالمظالم البالفات مشحونة بالمبر القارعات ناهيك انه قد
تضافرت النصوص الدينية الصريحة والبراهين العقائدية الرجحة
على سوء مقبلة من يتصف بالكذب وتبجح حال من أكل لحم
أخيه ميتاً او شهد شهادة الزور الى آخر ما في الباب من تلهم
الاذيال الذميمة والخصال السخيفة التي لا تقوم عليها مصالح البشر
الخطيئة البتة ولا تضر الغير بمقدار ما تضر أصحابها في الهيئة
فضلاً عما يترصد المتصف بها من العقاب الشديد يوم ينفع
الصادقين صدقهم

العدالة - هي التقسط اللازم الاستواء في جميع النفع
وكل الشؤون واستعمال الامور في مواضعها وبأوقاتها وفي
وجوهها وحقوقها وقد مضى شيء كثير مما يتعلق بها في ادب
المعاملات وغيره وأدب الحكومة، أما الظلم والجور ذلك
الذي يضاد العدل ويخرب البيوت والممالك ويفسد كل الاعمال
فهو خروج المرء عن العدالة المطالبة في جميع الامور كأخذ
الاموال من غير وجهها الحلال والمطالبة بما ليس له فيه حق

ووضع الاشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ولا على القدر الذي
يجب والوجه الذي يجب كالسرف والتبذير وتطفيف الكيل
وتخسيره ونحو ذلك

العفة - وما أحلى اسمها وأجل خلقها وأعم نفعها في ضبط
النفس دون الاسترسال في الشهوات ووزنها بعيران العقل والحكمة
وقصرها على الامور الحلال وهو الامر المطلوب انسانياً لصالح
حال البشر وجمعياتهم صحياً لتقدمهم وسلامة أبدانهم ونفوسهم
وعدم اضاءة أموالهم ولتحصل بالوزان الشرعي الانساني أمور
التناسل والتكاثر على مقتضى مبادئها الانسانية الحقبة بعكس
حال تقيض هذه الحالة من الفجور والانهماك في الشهوات
والشرور وارتكاب الموبقات وشرب الخمر والنميش تلك المفسد
والشرور الهادمة للبنية الانسانية المقوضه لدعائم الهيئات المحطة
بشرف النفس الآدمية المردية بقواها العاقلة والأدوية ، والآثار
والاخبار في مدح العفة وما تحتها من الخلال الحميدة ودم
الفجور والفسوق اكثر من ان تحصى وما اقبح من ان يصير
المرء الحر عبداً بارادته وأسيراً لشهواته التي تجره الى اختلال

أمره والانتهاه بتلاشي شأنه « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا
انفسهم يظلمون »

علو الهمة - خلة من أجل الحلال الانسانية الحصيصة

بالانسان والحرية بكماله العقلي وشرف ارادته التي يجب ان
تحرر من اسر الأهواء والسفاسف وتحرى بها اعالي الامور في
جميع الشؤون دون حقيرها وذيئها الدال هلى خسارة الشأن
وغباوة النفس وجهلها وصغر الهمة وانحطاط المزائم الامر الذي
تسفل معه كل الاعمال والافعال ، وعلو الهمة وكبرها حال بين
« التفنج وصغر الهمة » فالتفنج تطلع الانسان لما لا يستحقه ولا
هو كفؤ له وهو البذخ وصغر الهمة ترك ما يستحقه وهو الدناءة
وكلاهما مذموم على انه قد قيل (المرء حيث يجمل نفسه ان
رفعها ارتفعت وان قصر بها اتضعت) فيجدر بكل اصري ان
يجتهد ولا يصغر همته او يحط بنفسه قال الامام عمر بن الخطاب
رضى الله تعالى عنه (لا تصغر من همتك فاني لم أرا قعد بالرجل
من سقوط همته) وهذا انما ينال بالجد والاجتهاد والترفع
والتصون وتحرى أحسن الاحوال من غير ما صلف ولا تفنج
في الشؤون علماً وعملاً ولله ما اجل ما قال الشاعر

فقل لمرجى ممالى الامور بغير اجتهاد رجوت المحالا
 أما صفر الهمة والدعة في متمحي الاحوال كلوا فوجب
 الانحطاط واخسار ولذلك قيل ما لزم احد الدعة الاقل ، وحب
 الهوينا يكسب الذل وحب الكفاية مفتاح العجز « وقال الشاعر:
 اذا ما الفقى لم يبع الا لباسه ومطعمه فاخير عنه بعيد
 غير أنه لما كان التوسط في كل الامور من أهم شروط
 الحكمة والتوسط في كل الاحوال من اكمل الادب الانساني
 فلهذا يجب على كل عاقل ان يتوسط في أمره ولا ينزل نفسه
 الا منزلتها ويتدرج في شأنه بالحق والاعتدال تدرجا فلا تبلغ
 به نجبة التفاني في التعالي الى درجة « التفنج » المذموم ولا
 يحط بنفسه وهمته وعزيمته الى درجة الحقاوة والاخلاد الى
 أرض المهانة وما الحكمة الا بين الاطراف وخير الامور
 أوساطها كما جاء في الحديث الشريف .

القناعة النفسية من أجمل الخلال وأحسنها وليس معناها
 الاخلاد الى أرض الدعة والكسل والخمول والتكسب عن
 السعي والعمل بالجسد في تحصيل الارزاق والمكاسب بهمة
 ونشاط وعزيمة صادقة ضمن دائرة الشرع فيما لم يحرم من

الاعمال والمساعي كما تقدم القول فيه في باب أدب العمل بل المراد بها تلك الصفة التي تلازم النفوس الكريمة والهم المالية المتأدبة بأدب الاسلام فترضى في نفسها بالخاصل لديها في الوقت والحال ولا تظهر التأم والتني والشرة بل تناول ما تسمى اليه بالحق وما تحصله منه بالقدر المحبوب الممدوح فهذه القناعة هي ولا ريب التي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم « القناعة كنز لا يفنى » وهي بهذا الحال من أفيد ما يتجلى به الانساق ومن خير ما تراح اليه النفس ناهيك وان الطمع والشرة من أضر ما يضر بالمرء لأنه يفتح عليه باب الشر ومداخله الكثيرة والوقوع في الحرام في باب الكسب لفرط الطمع والجشع والله ما أحسن القصد والاعتدال وبمباراة اخرى ما أجل القناعة ذلك الكثر الذي لا يفنى .

كتمان السر - خلق ممدوح وهو يدخل في باب أداء الامانة والوفاء ، فاذا ما ائتمت انسان على سر يلقه اليك أو حدثك حديثاً يجب اخفاؤه فلا تكن سفلاً سفيهاً بازاعته خائناً بافشاءه ناكثاً عهد الامانة فيه ولقد قيل في مدح من يكتم أسرار أصحابه واخوانه

ويكتم الاسرار حتى أنه ليصونها عن ان تمر بباله
 وشرب الناس اولئك الذين لا اخلاق لهم من الثرثارين
 الذين يستزلون الناس اسرارهم حتى إذا ما استقرغوا ما في
 بطونهم من شكاء و برحاء و امور هامة اذاعوها عنهم للتشنيع
 بهم والخط من أقدارهم أو لمقاصد خبيثة يطوونها وهو لاء هم
 شر بني آدم وهذا الخلق من أودا الأخلاق وأحطها وأشأم
 الخصال وأخسها فالمرء لطر الشرائع الحسن الآداب يجدر به
 ان يكتم سر أخيه فيما يحيط به أو يضر بشأنه ولا يفشى عليه
 ما يكره من شكوى أو بلوى يبثها اياه لينفوخ همه وكرهه والله
 ما أطف وأرق هذه الحكمة التي قالها امرؤ عاقل لصديق له
 حين قال له « أريد أن أفشى لك سرا تحفظه علي » فأجابه
 الصديق الحكيم على الفور « لا أريد ان اربك قلبي بجواك
 واجعل صدري خزانة شكواك فيقلقني ما أقلقك ويؤرقني
 ما أرقك فتبيت بافشاءه مستريحا ويبيت قلبي بجره جريحا .
 وافشاء السر حرام لانه أمانة قال الحسن رضي الله تعالى
 عنه « من الحياة ان تحدث بسر أخيك »
 المحبة والمودة — وهي احدى أسباب نظام العالم العلوي

والسفلي ولو وجدت المحبة بين الناس كلهم على حقيقتها لاستغنى
 عن العدالة ولذلك قيل العدالة خليفة المحبة ، على ان هذه المحبة
 والمودة مما يجب بمقتضى ادب الاسلام أن يتخلق بها الناس
 بين بعضهم والبعض من الأهل والأقارب وأبناء الهيئة وعموم
 بني الجنس ولقد مضى عنها شيء في أدب المباشرة وهي مفيدة
 جداً في أدب النفس واستثمارها باخلاص بالنسبة الى
 أدب السلوك الاجتماعي ووسائلها كثيرة وقد جمها الله في
 قوله تعالى « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه
 عداوة كأنه ولي حميم » فمن عامل الناس بمروءة وشهامة
 وتسامح وتجاوز أحبوه وفاز بينهم بأنجح المقاصد واجل الأرب
 أما العداوة والتباغض والتحاسد والتدابر بين الناس فليس من
 شر يفوقها في جر المصائب والويلات فيما بينهم وفي الآداب
 الاسلامية آثار جليلة في المعنى للترغيب في توطيد دعائم هذه
 الخلة الاجتماعية الجميلة مما يعني عن الاطالة وسيأتي في أدب
 النفس مع الخلق ذكر حب الله .

المنافسة — وهي التقليد والتشبه بالغير فيما يراه ويرغب
 فيه لنفسه والاجتهاد في الترقى الى درجة أعلى وهو أمر مفيد

إذا كان فيما يتعلق بالخيرات الاجتماعية والامور الجليلة الانسانية
كما قال الشاعر

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح
وهذا الخلق يوجد في الصغار أكثر مما يوجد في الكبار
لحكمة انتظام أمور الخلق ولهذا يتحتم على كل اصري أن يظهر
بأحسن المظاهر المؤثرة في منافسيه حساً ومعنى من غير ما كبر
ولا عجب وما أكثر ما تفسد أحوال الذراري من القدوة السيئة
الفاصلة في الآداب العامة والأخلاق الشائنة في كل الشؤون
المحدقة بهم وتسرق أخلاقهم منه. ويحقق بهذا الخلق إذا كانت
النفوس حسنة التربية إما الغبطة، أي تمنى أن يرى الانسان نفسه
بمثل حال الغبوط دون ميل الى تمنى زوال نعمته واما «الحسد»
إذا كانت النفس خبيثة فاسدة التربية والحسد هو ذلك
الخلق الذي لا يسود صاحبه والذي يأكل الحسنات كما تأكل
النار الخشب كما جاء في الحديث الشريف فالحسود لا ينجح أبداً
في أموره لتمنيه المكروه للغير والعمل لاعدام نعمته أو الحط
من فضله وهو خلق سافل رديء ياله من خصلة في المنافسة
وميمة قبيحة ضارة بصاحبها أيما ضرر قال بعض الحكماء

(الحسد داء الجسد) وقال الاحنف بن قيس (لا راحة لحسود)
ومن يبلغ ما قالوا في هذه الرذيلة الاجتماعية (الحسد يبني
تقص الحسود ويدل هلى كمال الحسود وكفى بالانتقام منه ان
يتقطع حسرة وهو مع لؤم طباعه وخساسة نفسه واتضاعه
ينبه هلى فضل غيره ويظهر ما خفي من خيره) وفي ذلك يقول
الطائي :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها ان حسود
الوفاء - عملة مدحها الله تعالى (والوفون بعهدهم اذا
عاهدوا) - (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) وعرفوا الوفاء بأنه
الصبر على ما يبذله الأعداء من نفسه ويرهن به لسانه. وخلق
الوفاء خلق محمود ينتفع به كل الناس في مصالح هذا العالم وتنظم
به أمورهم فمن عرف به كان مقبولاً موثقاً به ناجحاً في جميع
أعماله ويقابل هذه الخلة من الرذائل (الندر) لأنه الرجوع
عما يبذله المرء ويضمن الوفاء به من نفسه وما أشأم الندر
والنكث والتنكب والحياة على بني آدم لان من يشتهر في
الهيئة الاجتماعية به لم يركن اليه البتة ولا يثق بعهده ووعدده
انسان فتضطرب حاله وتموش عليه أمورده ويعيش في حال

من المدلة زرية وأمر من الصغار واحتقار الشأن شأن جزاء
خيائته وخبث نفسه وطويته

الوقار - وهو الإمساك عن الفضول في الكلام والعيب
وكثرة الاشارة والحركة خفة ونزقاً فيما يستغنى عن التحرك فيه
وقلة الغضب والاصفاء عند الاستفهام والتوقف عن الجواب
والتحفظ عند السرعة والمبادرة في جميع الامور . وهذا الخلق
من أفيد الآداب النفسية في السلوك في الهيئة الاجتماعية
ويدخل فيه (الحياء) والحياء كما في الحديث شعبة من الايمان
وهو غض الطرف والانتقاض عن الكلام الفاحش والامر
الفاحش حشمة وتحشما . ويقابل هذه الخلة من الرذائل الخرق
وقلة الحياء والوقاحة وهي الجرأة في الكلام بلا احتشام ولا
تحفظ وكثرة الحركات والاشارات وشدة الضحك الميت
للقلوب والاتيان بالهزل والهذيان الذي استعاض منه رسول الله
صلى الله عليه وسلم (نعوذ بك من الهزل والهذيان) واكثر
ما توجد هذه الخصال الذميمة في أبناء السوق وأرباب السخف
والمجون وأهل الدعارة من غوغاء المدن خصوصاً ولكنه على
كل حال أمر شائن دال على سخافة العقول وبعبارة أخرى على

استحكام الجهل والنباوة وفساد الاخلاق في تلك النفوس وقلة
ما فيها الأدبية

*
* *

تلك هي جملة الاخلاق الفاضلة التي يجب ان يتخلق بها
المرء بموجب ادب النفس مع الخلق في الاسلام وكلها داخلية في
باب المروعة والأذواق السليمة ويجمعها اسم (الحكمة) على
أوسع معانيها التي قال الله تعالى فيها (ومن يؤت الحكمة فقد
أوتي خيراً كثيراً) وكلها وما يتفرع عنها قد نبه عليه في حكمة
القرآن وآداب السنة المطهرة النبوية . تنبيه حث عليها وتنبه
نهي وتحريم فيما يضادها ولقد تقدمت الاشارة الى شؤون الذنوب
والرذائل والقصاص والوعيد عليها ناهيك أن الرذائل في جملة
وتفصيلها مفسدة نشأت الانسان في حد ذاته وعمله كله وهي
تتمدى الى تناول افساد حال الهيئة الاجتماعية فمن اجل ذلك
كله من شرها أوجدت القصاصات في الشرائع بأجمعها لاقامة
قسطاس العدل بين الانام لما ينقصهم من آداب النفوس
المؤسس عليه ادب الجوارح لان امثال هاته الفضائل وان
لزمت بل وجب دينياً وأدبياً على كل انسان تحريمها في نفسه

وفي أهله وولده غير أن مما لا خلاف فيه أنها قلما تجتمع في
 انسان على التمام وان وجدت جملة في مجموع الامة كذلك ما يسمى
 رذائل من تقيض هاته الفضائل فان شيوعها هو كذلك ويستحيل
 ان تجد انساناً فيه عيوب الا وتجد الى جانبها فضيلة او اكثر
 قد تستحسن منه وتستظرف فيه غير أنه لا ينبغي مع ذلك المرء
 العاقل ان يقصر من همته ويتخذ ذلك حجة بل يجب اسلامياً لما
 جاء في الآية الشريفة (فاستبقوا الخيرات) ان يجهد ويجهد ليحصل
 الفضائل الرئيسة ويحلى بالخلال الشريفة وان يتجنب الرذائل
 الشائنة الحسية والمعنوية لان ذلك انما هو الوسيلة المظمية
 الى نوال السعادة في الحياتين ومنتاح للنجاح والنجاح في كل
 الاحوال والاعمال (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم
 سيئاتكم) والدين كما قيل في الاثر الشريف المعاملة بمعاملة
 الناس بأحسن الأخلاق واكرم الآداب الاجتماعية ومن لم
 يجاهد نفسه ليتصف قلباً وقالباً بالمحامد الاجتماعية والمباح
 الادبية في الهيئة والقيام بكل الواجبات المفروضة على افرادها
 في سائر الشؤون والتزام الادب النفسي في كل انواع السلوك
 فهذا قل ان ينال تلك السعادة على التمام بل كان بالشقاء أخرى

وباسم المتصرف في حق نفسه وحق أبناء هيئته أولى ولحقته اذا غلبت شروعه فضائله الاضرار والتصاصات المنصوبة للردع والقائمة للزجر وتقوم معوج الانفس والاعمال وتلك السعادة المطلوبة ان تنال بالراحة في هذه الدار بل الراحة في التمس والنصب واللذة في مجاهدة النفس على الدوام لتحصيل الفضائل والمعارف وابتناء المنزلة في القلوب وعند الرب تعالى بالاعمال الصالحة في الهيئة الموجبة لسلامتها سواء قام بها الافراد او تضافرت عليها ايدي الجماعات تحريماً لاستقامة أمورهم كلها في هيئتهم نزوعاً الى الرقي والكمال الانساني الذي ينساق فيه الانسان بطبيعة الممراني وما الشرور والذائل الا موقوفات في سبيله مقوضات لأركانها فهي من قبيل الامراض التي قد يمكن تلافيها او هي بعبارة اخرى كتلكم الحشائش التي تلتف حول اصول الاشجار والنبات الطيب من اصل الفطرة فتعكسها وتوقف نموها وتمتص غذاءها ولهذا يجب على كل امرئ مهاجمة نفسه التي بين جنبيه على استعمال احسن ما فيها واستعمال ما قد ينبت الى جنب ذلك من ردىء حشائش الذائل خصوصاً ما قد تويه اياه غوايات النفوس انه من اكل

لحظوظ وانواع اللذات والسعادات وليس هو عند التمهين
 لدقيق منها في شيء بل وبما كان من شر جالبات الشقاء والتعاسة
 والقيام بهذا كله يدخل في ذلك الامر المحبوب المطلوب سواء
 في آدابنا الاسلامية او في آداب غيرنا من تزكية النفس وترقيتها
 مما لا فلاح ولا نجاح البتة الا به

فرياضة النفس بموجب كل الآداب القديمة والحديثة
 اذن واجبة وهذه الرياضة او المجاهدة العملية تكون بتهديب
 النفس اى تهويدها الفضائل الاجتماعية والاعتدال واستخدام
 العقل الرشيد في كل الشؤون الحيوية واجتناب الرذائل
 والافراطات في تلكم الاحوال ولا يستثنان احد ذلك بل
 لا يندر في تركه فو ادب اسلامي والقرآن المجيد امامه والسنة
 النبوية بين يديه وكل ما تقرر بواسطتهما من النظمات الاجتماعية
 والآداب الصحيحة فيه يسر وتيسير من حيث سد حاجات
 النفوس وتطلمات القلوب بما فيه مندوحة للاخذ بالحلل
 الصرف وتجنب الحرام المنهى عنه (وما أتاكم الرسول فخذوه
 وما نهاكم عنه فانتهوا) وقد امرنا بالاخذ بأحسن الاشياء الحسية
 والمعنوية و امرنا بان نؤدب نفوسنا وتجنب الفواحش من الرذائل

ما ظهر منها وما بطن وان نحسن المعاملة والسلوك مع الخلق
وجعل هذا كله مفتاح النجاح والفلاح بل قطب رحي السلامة
في الدنيا ونيل السعادة في الآخرة

ولقائل ان يقول ان الاخلاق لا يمكن تغييرها لانها
اخلاقه الباطنة أو صورة النفس أو ترشيحها من الطبع الآدمي
فهي كاخلاقه الظاهرة من حيث ان هذا جميل الصورة بهي
الطامة وذلك دميمة الصورة قبيح المنظر، وذلك طويل القامة
وذلك ضعيف البنية فكيف يطمع في تغيير ما يظهر أنه من
متمات الطبيعة البشرية لانتظامها به حساً ومعنى ناهيك ان
للبيئات حكماً طبيعياً ومعنوياً خصوصاً إذا كانت تلك البيئات
الادوية كثيرة الشرور والفساد وهي باطراد الاحوال مطردة
الفساد والافساد في الاخلاق بالتلقيح والعدوى من القدوة
السيئة بالطباع السوء التي يقول فيها الشاعر

إذا كان الطباع طباع سوء فلا ادب يفيد ولا اديب

على ان هذا كله قول ضعيف لانه لو كانت الاخلاق

لا تقبل التغيير والله تعالى يقول (لا يغير الله ما بقوم حتى
يغيروا ما بانفسهم) لبطل شأن الوعظ والتأديب الشرعي،

وكيف ينكر قبول التفسير بخلق الانسان صاحب الاستعداد
القطري العظيم والقابلية الكبيرة مع أن الحيوان الأعجم قد
يتغير خلقه بالتهذيب والتدريب ، فالبازي ينقل من الاستيعاش
الى الانس والكلاب من الشره الى التأدب والامسك والتخية
(كما هو مشاهد في كلاب الصيد) والفرس قد تنقل من
الجماح الى السلاسة والالتقياد وكل ذلك تغيير في الاخلاق
أخلاق هذا الحيوان الأعجم الفريزية فكيف بالانسان سلطان
المخلوقات وصاحب العقل الرشيد؟ لا ريب أنه أولى وأحرى
بأن تقبل أخلاقه التغيير وتسلم طباعه لا سيما والنهج ميسره
والطريق طريق الخير مفتوح الباب اسلامياً واجتماعياً لديه
وهو بمقتضى سير العالم لو حاد عنه الى ما يفسد بشأنه دون
التمسك بما يرقى أمره ويعلو ندره كان ولا ريب الساعي الى
حتمه بظلمه إذ العالم في جهاد مستمر فاليقظ الاخذ بأسباب
الكمال والفلاح هو الناجح الظاهر والمخلد الى أرض الحساسة
في الاعمال والسفالة في الاخلاق هو الخاسر ، فهل الاسلام
يأمر بذلك؟ هل يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء

والمنكر وكل الأخلاق الذميمة وينجح أهله إلا باتباع ما أسره
والانتهاء عما نهى عنه ؟

فمن تمام النعمة علينا في أدبنا الاسلامي أن أرشدنا الله
تعالى الى كل خير أصلي يصلح لكل زمان ومكان كما أمرنا ان
نمسك بذلك تمسك فملم في كل ادوار الحياة مما يدل على قبول
الاخلاق للتغيير وأن نفوسنا قابلة لأن نضمها حيث أمرنا حتى
نصاح لهدايتة وفيوضاته القدسية (لا يغير الله ما بقوم حتى
يغيروا ما بانفسهم) وتتمام الابداع في الصنع لم يعط الانسان
هذا الخلق باديء بدء تاماً كاملاً وبعبارة اخرى غير قابل للتغيير
والتبديل بل الاعضاء الباطنة أو الحواس النفسانية من الادراك
والمقل وإن كانت كالأعضاء الظاهرة من حيث أنها بتبديء
تم شيئاً فشيئاً حتى تشتد مع الزمان إلا أنه قد جعل لها فوق
ذلك تلك الاستعدادات العظيمة والقابلة الكريمة والاختيار
والارادة للتكليف بها والتخوير وتصحيح المبادئ بفضل ما وهب
من المقل وقوة الادراك والبصيرة وحسن الافواق وقبول
الهدايات الربانية والفيوضات الوجدانية التي يجب أن تربي
وتوقف على المبادئ والمعلومات وهي لها بعد ذلك شأنها من

قوة الحكم واستخراج صحيح النتائج من فاسدها ولكل أصل
في مستند ادبنا من الكتاب والسنة السمحاء

وإذ كان الخير والشر أو بمباداة أخرى الفضائل الانسانية

والرذائل الاجتماعية قد بين حالها بياناً شافياً في مبادئ الادب

الاسلامي وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عمنوا

أخلاقكم » وقال « بعثت لأتم مكارم الاخلاق » فقد ظهر

لنا من هذا كما ظهر لنا مما سبق أيضاً في الآية أن ذلك

مطلوب من كل أحد كالعلم الذي طلبه فرض عين على كل مسلم

وكالقرآن المأمور العمل بهدايته لا ان نتلوه فقط لجرد

التبرك بتلاوته أو التزم بالفاظه وكل هذا يرجع علماً وعملاً الى

تلك الغاية السامية من تزكية النفوس وتطهير الاعراق فكيف

يدعي مدع بعد هذا كله أن الطباع لا تقبل التغيير وهي

مأمورة به ومكلفة وقد ركبت في الانسان كما سبق بكيفية قابلة

له ولولا ذلك لما تحول جيل العرب في صدر الاسلام بهداية

القرآن من الخشونة والشراسة في العادات والاخلاق اخلاق

الجاهلية الاولى الى تلكم الاخلاق الاسلامية الجديدة السامية

(ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ناهيك ان الاخلاق

الاجتماعية الفاضلة الأمور بها وأتيت على الكثير منها آنفا
ليس فيها خلق الا وله فوائد ومزايا جليلة في انالة النفوس النجاح
والفلاح في هذا العالم عالم التكليف كما تقدم وأن لا شر ولا ضرر
ولا تقهر ولا اتضاع الا باتباع اضدادها وفضيان الذنوب
وقد تقدم عن ابن قيم الجوزية بيان ما يلحق المرء من آثارها
فيجب مجاهدة النفس وتدريبها وتويدها دائما الخيرات الاجتماعية
والنفسية وتحليتها بالآداب والكمالات وأن صعب الامر
واستمعى الحال للاسباب الكثيرة المحددة بالانسان مما يجعل
الهمم متفاوتة والتفاضل في العزائم والارادات ظاهرا وكما
كانت التربية متأصلة منذ الصغر والقدوة العملية في البيئة حسنة
وجميلة كان الامر في اكتساب الفضائل أقوى وأوسع وأظهر
في الكبر على قدر فلك من المجاهدة مجاهدة النفوس للمؤثرات
ومقاومة الغوايات النفسانية على ان النفس لما قد ركب فيها من
قوى الشهوة والغضب قد تكون كاللابة الجوح اللازم لها
الترويض والتأديب حتى تكف عن الهوى وتنقاد الى العقل
بزمام والا صار الانسان عبدا للهوى وبعبارة اخرى أسير شهواته
البيمية ونزعته الشيطانية فانسأخ عن انسانيته وحرم شرف

الإتصاف بمجمل أخلاقها بين بني هيثته فنزل قدمه بعد ثبوتها
 في جميع أفعاله ولا يعود ينجح في سائر مساعيه مصداقاً للآية
 الشريفة « قد افلح من زكّاهما وقد خاب من دساها » والآثار
 في الباب باب تأديب النفس وتهذيبها جلب السرور اليها ودفع
 الشرور عنها والمخاوف مما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم
 الجهاد الأكبر لهذا الغرض الشريف فضلاً عن الغرض الديني
 الكريم كثيرة فالزم أيها المسلم المصري الفضائل واجتنب في
 سائر أحوالك الرذائل تحفظ بالسعادة الأبدية والكمال الإنساني
 الإسلامي ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اكمل
 المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً » ويقول الشاعر « هي النفس
 ما عودتها تهود »



﴿ القسم الثاني ﴾

(ادب النفس مع الخالق)

الادب مع الله تعالى — املاء القلوب من عظمة الله — الاسلام
والايمان حال النفس المستكملة المطمئنة — التقوى جماع الخير —
الاخلاص وصدق النية — تعريف النية — الاخلاص الحق —
المحبة لله تعالى — مقامات وأحوال النفس الاخرى — الرجاء
والخوف — محاسبة النفس ومراقبتها — التوبة — الصبر — الشكر —
التوكل — الزهد — التفكير .

« مثل الايمان كمثل بلدة لها خمسة من الحصون الاول »

« من ذهب والثاني من فضة والثالث من حديد والرابع من »

« آجر والخامس من لبن فما دام أهل الحصن متعاهدين الذي »

« هو من لبن لا يطعم العدو في الثاني فاذا أهملوا ذلك طمع »

« في الحصن الثاني ثم في الثالث حتى تخرب الحصون كلها »

« فكذلك الايمان في خمسة من الحصون اولها اليقين ثم »

« اداء الفرائض ثم اتمام السنن ثم حفظ الآداب فما دام العبد »

« يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لا يطعم فيه فاذا ترك »

« الادب طمع الشيطان في السنن ثم في الفرائض ثم في »

« الاخلاص ثم في اليقين فينبغي الانسان أن يحفظ الآداب »

« في جميع اموره » (الشيخ عبد القادر الجيلاني)

في كل شيء اذا ضيعته عوض وليس في الله ان ضيعت من عوض

لقد تقدم في اول هذا الكتاب ما يجب على المسلم من

ادب الاعتقاد مع الله تعالى وتزويه وتقديسه والقيام بعبادته

لانه سبحانه وتعالى خالقنا ورازقنا ومصيننا ومثيبنا ومجازينا على

اعمالنا وافعالنا جزاء كريماً السيئة بمثلها والحسنة بعشر امثالها كما

هو صريح مدلول القرآن والسنة وانه تعالى تفرد في علاه

موصوف بالكمال المطلق واتقان الصنع وابداع التدبير خلقه

بما لا يمكن ان يقف على كنهه عقل مخلوق على التمام ، وانه

تعالى له في خلقه التصارييف بما شاء وكيف شاء ولا يحيط

بحكمته أحد ولا يقدر ان يحصى نعمه المتواصلة وامداداته

المتوالية انسان لهذا كله كما لزم القيام بحق عبادته وتقديسه

وجب اشعار النفوس الادب بحقه بالاخلاص له والحب

والتقوى والخوف منه لانه تعالى الفعال بالحق لما يريد وهو

أحكم الحاكمين وارحم الراحمين سبحانه جل شأنه

ولقد مضى القول كما سلف في الاعتقادات والعبادات في

أول هذا الكتاب بالايجاز والاختصار فبقى أن أشرح ما هو

لازم من الادب والتأدب النفسى الخالص مع الخالق العظيم مسدينا أجل النعم ظاهرها وباطنها مما لا يمكن حصره ولا عدده كما قال تعالى في القرآن المجيد (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ولا غرو فاستصحب هذا الادب في النفس البشرية واملاء القلوب من عظمته تعالى خشية ورهبة وحباً وأملاً كريماً وتقديساً وتزهيماً واخلاصاً هو عين العبادة بل هو عين الايمان وتمام السعادة في الاسلام وكل الآيات والاحاديث ناطقة بذلك شاهدة عليه مبينة ان عمل الجوارح والاعتقاد باللسان لا يتم به اسلام المرء وايمانه الا اذا صحبه عمل الوجدان الانساني من استشمار الضمير واتصافه الذي عنه ينبعث باعث الرغبة للقيام بشوق وعزيمة صحيحة لتجويد عمل الجوارح ومراعاة روحها ولهذا فرّق بين الاسلام والايمان (وقالت الاعراب آما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) وترى شرح هذا مطولا في كتب الاسلام المعتمدة كالتفسير القرآنية وشروح كتب السنة كشرح مسند مسلم للإمام النووى وشروح البخارى وغيره فالايان عمل القلب ، عمل الضمير ، والاسلام وان عم

هذا ضمنا لكنه يشمل عمل الظاهر والايمن خصيص بالباطن
كما فسروا به تلك الآية النازلة بحق الاعراب ، والاسلام
الشامل والايمن الكامل مصدر كل خير وسعادة حقيقية
الانسان تستطاب بها كل أعمال الجوارح في الاعتقادات
والعبادات وكل المعاملات وترتاح لها النفوس بما لا يمكن ان
يتصور في أي سعادة أولذة أخرى نفسانية ، بل هي لذة فوق
كل لذة ، وشعور سام يملو كل شعور بما لا يمكن لاي
امرئ أن يصور شأنه أو يكيف حاله واستطابة نفسه به ،
ولا عجب فللايمان كما في الحديث الشريف حلالة وللتقوى
كرامة وحباً عند الله جمّاً وإذا أحب الله عبداً كان كما جاء في
الحديث الشريف بصره الذي يبصر به وتسمعه الذي يسمع به
وتلك هي صفة أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى الذي يرمى اليه جملة المتصوفة وغلاتهم .
وهذا الحال للنفس المستكملت أديها الباطني بحق الله تعالى
وقبولها للفيوضات الآلهية واستشعارها الرحمت الصمدانية
أمر دقيق ومقام عظيم وقد أطال فيه القول علماء الاسلام

الروحانيون وفلاسفة الاخلاق الصوفيون^(١) كالامام الغزالي والقشيري والسهروردي ومحي الدين بن عربي وغيرهم مما لا يدخل تحت مقصود هذا الكتاب للفروع الذي قصدت اليه فيه من الاجاز والاختصار والوقوف خصوصاً عند الحدود العامة والقيود الشرعية البهتة المقصودة بالذات في أدب الاسلام باطنياً وظاهراً وأعني بها الفضائل وأنواع الآداب النفسانية الواجب التحلي بها بحق الذات العلية القدسية ، تلك الفضائل والآداب المثمرة بالحقيقة أجل الثمار والفوائد في كل أعمال الحياة الدنيوية والدينية كالاخلاص والمحبة والشكر والتوبة الى اشباه ذلك مما تجمعه كلمة « التقوى » المطالبة من الانسان ليحظي بأجل الأرب وسعادة الأبد لقول الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم « جامع كل خير » وحقبة التقوى التي هي لباب الطاعة التحرز بطاعة الله عن عقوبته وأصل التقوى اتقاء الشرك ثم اتقاء المعاصي والسيئات ثم اتقاء الشبهات ثم ترك الفضلات مع القيام بجهام العبادات وحسن المعاملات ، وهذا ظاهرها

(١) الاحياء للغزالي والرسالة للقشيري وعوارف المعارف لسهروردي الخ

من اتقاء الحدود والقيام بالواجبات أما باطن التقوى وروحها
فصدق النية والاخلاص ولهذا قال بعضهم « التقوى عمل
بطاعة الله على تروع من الله مخافة عقاب الله » وقال عمر بن
عبد العزيز رحمه الله ليس التقى صيام النهار وقيام الليل والتخليط
فيما بين ذلك ولكن التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض
الله فما رزق الله بعد ذلك فهو خير الى خير » وخلاصة القول
ان التقوى تلك الصفة التي هي جماع الخيرات يجب ان يتصف
بها المرء قبل كل شيء ليصل الى ما بعدها من المقامات قال
بعض حكماء السلف الصالح « من كان رأس ماله التقوى كالت
الاسن عن وصف ربحه » ويقول الحكيم ابن الوردي في
لاميته المشهورة

واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب اصري الاوصل
هذه هي التقوى وثمرتها أما ما بعدها من المقامات التي
تستلزمها وتصاحبها اولا تنال الا بواسطتها فكثيرة انما آتي
ها هنا على ما هو الأشهر منها وهي مقامات جليلة ومراتب
احوال عالية قد لا يظفر بها كل الناس وان كانت مطلوبة من
كل الناس فهي كالاخلاق الفاضلة وكل الآداب النفسانية

السالفة الذكر من حيث عدم تساوى الهمم فيها كاعمال الجوارح التي قد يتساوى الناس في الاتيان بها والقيام بحقوقها لان هذه امور دقيقة وجدانية وتلك رواتب أعمال ظاهرة منتظمة مع ان تلك روح هذه بلا امتراء ، فاذا أتى المرء بعمل الجوارح بلا التفات منه الى عمل الباطن من مثل الورع والخشية وصدق النية والاخلاص والشوق والمحبة لم يجز من ثمار عمل الظاهر بمقدار ما تشتهي الانفس الكريمة اللوامة من لذة وسعادة في نفسها ووجدانها بل في كل الاعمال الحيوية المنوطة بها في هذا العالم فضلاً عما تستروح له وتنتظوه من أجر وثواب في الآخرة الجامعة لا كل أنواع السمادات في الجنة دار الخلد والنعيم المقيم التي أعدت للمتقين .

و اول تلك المقامات التي سبق أن التقوى تجتمعها « الاخلاص » المطلوب في العبادة كما في المعاملة « فادعوا الله مخلصين له الدين » ومبدأ الاخلاص صدق النية إذ العمل يحتاج الى النية والنية تحتاج الى الاخلاص حتى تكون صحيحة ، فاذا كان الاخلاص روح النية فالنية الصادقة روح الاعمال ولقد جاء في الحديث الشريف « إنما الاعمال بالنيات وإنما

لكل امرئ ما نوى ، وجاء في حديث آخر كاشف لمنى
 الاخلاص وحال القلوب في نياتها قال عليه الصلاة والسلام « ان
 الله تعالى لا ينظر الى صوركم واموالكم ولكن انما ينظر الى قلوبكم
 واعمالكم » ولهذا قال احد العلماء « اطلب النية للعمل قبل العمل
 وما دمت تنوى الخير فانت بخير » وقال بعض السلف الصالح
 « رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية » ومن
 نصح العالم سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز (اعلم ان
 عون الله تعالى لا يبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله
 له وان نقصت نقص بقدره) وجملة القول ان عماد الاعمال اية
 كانت الاخلاص والنية الصادقة من السريرة وهى مفتقرة الى
 ذلك لتصير به خيراً محضاً على ان النية الصالحة هى فى نفسها
 خير وان تعذر العمل فان ثوابها عند الله باقى لاحتق بصاحبها كما
 دلت عليه الآثار ولانها عماد الاعتماد عن الرذائل وعتاد
 تجنب المساوى والشور

ولقد عرفوا النية ^(١) التى جعلوا من مرادفها الارادة
 والقصد انها حالة أو صفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل والعلم

يسبق العمل لانه شرطه والعمل يتبع العلم لانه ثمرته ، ومن لوازم العمل بعد العلم الارادة والقدرة ، فالعلم يوقف على النافع والضار من الاصر وبالارادة يعزم المرء ويختار وبالقدرة يتم العمل على الوجه المطلوب ، فالاعتقاد أو العلم اللاحق بالنفس الراسخ في الذهن أصل والارادة الباعثة أي القصد تابعة والقدرة العملية خادمة للنفس في العمل بحكم الرغبة والفرض وهذا الفرض هو المقصد المنوي والانبات هو القصد أو النية وانهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء بالاختيار هو العمل .

وهذا الباعث من النية يرجع كما شرحناه الى تمكن الشخص من الاحاطة والعلم وقوة التمييز النفسى المحمول على هداية الله الملقاة في الروح من قوة الاحاطة والادراك والميل الوجداني الفطري ثم بالتوقيف على المبادئ الصالحة واضدادها دينياً ودينيوا المثبتة في الشرائع الآلهية والآداب البشرية وبذلك يصح للمرء الحزم والقطع في الاختيار والتفضيل بالنية الصادقة والاعمال الصالحة التي بالتكرار تصير ملكات للنفس وما لم يكن للانسان هذا الحال لا ينبغي ان ينتظر منه صدق النية والعزيمة إذ يكون الانسان كالصبي لا يفرق بين الضار والنافع والغث

والسمنين إلا بما أفادته بالطبع عادات مجتمعه وربما صرفت
النيات فيها والمقاصد والآراء والاعمال التابعة الى ما يضاف
روح الاغلب الديني إما للجهل بمبادئه الحقة أو لانصراف
المزائم عنها خلفاء فوائدها وقيام شبه فوائدها من المبادئ
مقامها وان كانت ضارة أولاً تساوى منافعها منافع تلك المبادئ
الدينية النفسانية فلو صدقت النيات أي خاصت المبادئ من
غواية الضلالات والسفاسف الشيطانية لما أدت العبادات
وأجريت الاعتقادات وسائر الاعمال الدينية مثلاً كرسوم
وشمائر تقليدية بل لرعى فيها وفي كل الاعمال روحها وآدابها
الحقية ولجنى هذا الانسان من وراء هذا في نفسه وفي عمله
كله أجل الاحوال واللذات وأسنى السمادات الأبدية ولقام
له من نفسه بسبب هذا ملكة «الخلاص» الحق ومقام
المخلصين كبير وأمره عند الله خطير قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « ما من عبد يخلص العمل لله أربعين يوماً إلا
ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وقال عليه الصلاة
والسلام لمعاذ « اخلص العمل يجزك منه القليل » وقال العالم
السوسي « الامر كله يرجع الى أصلين فعل منه بك وفعل

منك له فترضى بما فعل بك وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد
سعدت بهدين فزت في الدارين «

والإخلاص هو الأتيان بالأعمال خالصة لا يشوبها أقل
رياء قياماً بواجب حقها سواء في العبادات أو في سائر الأعمال
قاصداً بذلك مراد الله تعالى منها لعباده وتحصيل ثوابه
الأخروي عليها ومن يتجلى بهذه الصفة صفة الإخلاص الديني
لاجرم يكون بآمن من تلك الخصال الذميمة من الرياء والخذاع
أو النفاق لانتفاء هذه الكدورات الشيطانية المفسدة المحبطة
للأعمال عنه بمحاول الإخلاص القاب وهو المشر لجميع المحامد
والفيوضات الرحمانية على القاب البشري الذي جاء في الحديث
أنه مسكن الخالق تعالى إشارة إلى ذلك من الإخلاص
والتقوى والطهارة النفسية والمحبة والتوكل والثقة بالله تعالى
المظيمة النفع .

أما المحبة محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم التي هي
فرض عين فثمرتها من أجل ما يتصف به من المقامات في
الطاعة والتقوى لأن من أحب أخلص الطاعة وأصدق النية
في العمل بما يرضى المحبوب . فأصل الأعمال الدينية حب الله

وحب رسوله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الدين كله وهذا منتهى الكرامة في الإسلام وأرفع المقامات
و درجات أهل الإيمان .

ومحبة الله لاهل المؤمنين وحبهم له منصوص عنها في الكتاب
العزيز « يحبهم ويحبونه » وقد جعل رسول الله صلى الله عليه
وسلم من شروط الإيمان حب الله وحب رسوله « لا يؤمن
أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » وروح
هذا الحب ووسيلته المتابعة متابعة الرسول بالإيمان والأعمال
والإخلاص فيها كما في الآية الشريفة (قل ان كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله)

والحبة أصل من أصول قيام العالم العلوى والسفلى في
حركات الأفلاك والكواكب ونواميسها من الجاذبية والحركة
ونحو ذلك من تفاعلاتها وتماسها وقيامها بأمر الله وهي أى الحبة
بالنظر الى ما نحن بصدده جنس تحته أنواع متفاوتة فمنها
ما ذكرت بحق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وفسرت
المتابعة بالطاعة والتقوى والإخلاص والأجلال والتمظيم فهي
من أجل وأشرف أنواع المحبة التي هي أصل السعادة

ورأسها والتي لا ينجو احد إلا بها ثم لها مقام آخر أعلى وأشرف
من وصل اليه فقد ملئ قلبه هدى ونورا وشوقاً ورغبة كما قيل
خيالك في عيني وذكرك في فمي وهشاك في قلبي فأين تصيب

وهذا ولا ريب ارفع مقامات الحب واعظيها ، وهذه
الحجة آثار وتوابع ولوازم من الذوق والحلاوة والشوق والانس
والقرب فالحجة كالارادة اصل من اصول الدين واصلاها وتوابعها
تظهر في الطاعات واجتناب المحرمات ثم يترقى منها الى مقامات
أعلى في القرب والاتصال ، وكل فوائد الحجة لله وارباحها عائدة
على المرء من رفع الدرجات ونوال أسنى المقامات بحضرة رب
الارباب وهناك ولا ريب كمال اللذة والسرور والفرح والحبور
لكمال المحبوب وكونه تعالى فوق كل مطلوب ومحبوب .

ولقد أطل الامام حجة الاسلام الغزالي^(١) في تحقيق
معنى الحب لله متدرجاً في البرهنة عليه على حسب طريقته
الفلسفية الدينية بان الحب بعد ان ينتج عن التصور والادراك
يرجع الى خمسة أسباب (١) حب المرء لنفسه (٢) حب من
يحسن اليه (٣) حب من يستحق المحبة لجماله (٤) حب من

يستحق المحبة لكامله (٥) الحب للمناسبة الخفية بين المحب
والمحبوب. ثم برهن على انه لا ينحصر كل صفات الكمال والجمال
والاحسان والارتباط بين الخالق والمخلوق في ذاته وصفاته
تعالى الظاهرة والباطنة لهذا كان لا يستحق المحبة الحقيقية الا
الله جل شأنه ولقد أفاض في الاحياء بهذا الصدد وأستنتج
بحق ان محبة الله تعالى ومعرفة والشوق اليه هي أجل اللذات
وأكمل السمادات المدركة بالعقل والبصيرة الباطنة كما هي مدركة
بالبصر الظاهر لكل ناظر الى جمال عمل الصانع تعالى من هذا
العالم وبديع صنعه وعظيم إحكامه مما يجذب القلوب ويدهش
الالباب ويغرب النفوس والله در ذلك الشاعر الحكيم الذي
أدهشته عظمة الصانع تعالى فانصرف بكلمته الى حبه فقال
كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت منذرأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت احسده وصرت مولى الورى إذصرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يادينى ودينائى
ولا يتصور ان العبد يحب الرب فالرب تعالى لا يحبه
ما دام هناك الحب والاخلاص وصدق النية وفي الحديث
« من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعاً ومن تقرب الى

فراعاً تقربت اليه باعاً ، فالمرء إذا احب الله تعالى حباً خالصاً
عاملاً بأمره منتهياً عن نهيه أحببه الله وجزاه على حبه له
بالقيام بأمر الطاعات أضعافاً مضاعفة وأسبغ عليه نعمه ظاهرة
وباطنة بل كان كما تقدم في الحديث بصره الذي يبصر به وسمعه
الذي يسمع به وجعله بالمعنى الحقيقي من أوليائه وأصفيائه الذين
لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وهذا منتهى الرضا وتمام السعادة
لأنه بالحب والاخلاص تنتظم أمور المرء العملية التمسدية
والتعاملية وبذلك تستقيم لهذا الانسان الأحوال في الهيئة
وتصفو له الموارد والمصادر في الحياة الدنيا وينال حسن الثواب
في الحياة الآخرة ونعم أجر العاملين



قلت إن التقوى جماع الخلال الشريفة والأحوال النفيسة
المنيفة من صدق النية والاخلاص والمحبة الى آخر ما في الباب
وهي ولا شك تنتج تلك الأحوال والمقامات العظيمة من الرجاء
والخوف والمراقبة والمحاسبة والشكر والتوكل والزهد والتفكير
في سائر أحوال السلوك النفسي بازاء الخالق تعالى وغب التضلع
من رحيق القرآن والتأدب بادب السنة النبوية المطهرة ، فهذه

الاحوال مما سأتى عليه الآن هي وسابقتها كلها أحوال
ومقامات سامية أخذ بعضها برقاب بعض ولا ينتجها ولا ريب
غير رقى الشعور الدينى السامى والإيمان الكامل الذى يتطلبها
ويستلزمها بالتساوي واحدة واحدة

وشرح هذه الاحوال الذوقية النفسانية العظيمة المتسامية
المرتبطة هي وسابقتها من النية والأخلاص والمحبة أيما ارتباط
كأنها الحلقة المفردة والتي هي من أهم شروط الأوصاف الدينية
وآداب النفوس السامية حيايل عظمة الله جل شأنه وعز سلطانه
مما يضمن للمرء المتصف بها ولا ريب النجاح والفلاح في كل
الشؤون الدنيوية والاخروية ويشرح صدر المؤمنين وينتج
افئدتهم هي انى « الرجاء والخوف » رأس العمل ، والرجاء
وصف من أوصاف النفس عند ما تدرك ما وراء الإيمان
والتقوى والأخلاص والمحبة الى أشباه ذلك من مقامات عظيمة
ودرجات عند الله تعالى عليه كما هو مدلول الكتاب العزيز
والسنة النبوية الشريفة فتعمل رامية وثقة بنوال منازل القرب
ودرجات الأعراف والأكرام ونعمت للعناية ونعمت الواسطة
الموصلة لها من العمل الصالح حتى قال ابن عطاء الله السكندري

رحمة الله عليه في حكمه المشهورة في تعريف الرجاء الحق
« الرجاء ما قارنه عمل والا فهو أمنية »

أما تلك الحال الشائنة من التمني بلا عمل كالذي يقول في
مثابها من أمر الدنيا الشاعر :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن إلق دلوك في الدلاء
فلا ثمرة لها البتة ولا هي بذات جهوى وشر منها تلك
الحال الزرية من اقتحام الموبقات واقتراف الذنوب وكونا الى
عفو الله ونوال مفرته فهي جهل وحمق وضلال ميين وذنوب من
الذنوب عظيم لانه جرأة على الله والجزاء كما بينه تعالى من جنس
العمل والثمر من نوع البذار ويقول الشاعر

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس
ولقد قال الصوفي الكبير معروف الكرخي رضي الله
عنه « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة
بلا سبب نوع من الفرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق »
فالتمسك بالعمل بالاسباب حسية وممنوية ينتج السلامة
ويقوى الرجاء بمكس حال التماهي في المعاصي غرورا مع الاصرار
والتمني ورجاء العفو بلا ندامة على التفريط في جانب الله تعالى ولا

اقلاع وهذا لا ينافي ما جاء في فضل الرجاء رجاء غفران الذنوب الذي هو من حق الله تعالى وحده المطلع على السرائر والذي يخاطب عباده التوَّابين الأوَّابين بقوله تعالى « يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » فمع وجوب عدم القنوط من رحمة الله وعفوه وغفرانه ووجوب الرجاء وحسن الظن بالله مع هذا كله لا بد من التوبة والاقلاع عن المعاصي والذنوب ظاهرها وباطنها وصریح الآيه « انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » أما التمني والتماهي في الضرور والشرور بنفوس متصلة وقلوب متحجرة مصرة على الخطايا فله قسطه من الحساب والعقاب كما أن للنفوس اللوامة والوجدانات الاوَّابة نصيبها من رحمة الله وعظيم غفرانه للخطايا والذنوب « ومن يغفر الذنوب الا الله » بشرط عدم الاصرار والاقلاع عنها بتاتا بتوفيق الله وهداياته وعزيمة النفس واواقيتها حتى تستكمل النفس شروط التوبة النصوح خوفا من الله تعالى ومحافة الله كما جاء في الاثر الشريف رأس الحكمة .

وحال هذا الفريق من عظيم أحوال « الخوف » من

الذنوب والخطايا الذي هو في مقابل الرجاء في استقامة احوال
الآدميين وحسن سلوكهم الديني والديوي لانه لعلم المرء
المتأدب بالادب الديني المتصف بالايمان اليقيني بما جعل الله
عز وجل في مقابل ارتكاب المعاصي والذنوب والمظالم من
المقوبات الشديدة الاخروية والديوية فحسب معرفته بعيوب
نفسه وشعور وجدانه بما هو واقع فيه يخاف الله رب العالمين
ويتقيه في نفسه فيكون له من ثم رادع وواجر منه اليه عن
الاقدام على اقتراف ما يقبح الايتان به من الافعال القبيحة
والاعمال الشائنة فينجو بذلك من عذاب الله ويستقيم له من
ثم عوده . على ان حال الخوف ومقامه عند المارفين كبير لان
لاحوال التقوى والمحبة لذة من نفوسهم ووقفاً من قلوبهم
يجعلهم أبدأ في حال من الاحترام والتعظيم والورع والحشية
عظيم جداً فهم أبدأ يعملون على رجاء كما يعملون على خوف
خوفاً من الحرمان من تلك المقامات العالية فيجدر بالمسلم بمقتضى
ادب دينه النفسي أن يشعر قلبه بمخافة الله تعالى ويتقي كل
ما يوجب السخط وغضب الرب تعالى ومن خاف سلم ورأس
الحكمة كما تقدم في الحديث مخافة الله تعالى والذي يخاف الله

يلجأ اليه لأنه لا مفر منه إلا اليه فيعمل بما به أمر وينتهي عما
 عنه نهى وزجر ولهذا قال الحكيم أبو القاسم الصوفي « من
 خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب اليه » وهذا
 اللجوء الى الله تعالى خوفاً من الله يقتضي ولا ريب تزكية
 النفس بتأديب الجوارح وتطهير البواطن من كل خلق ذميم
 سواء مع الخالق تعالى أو مع الخلق من ذوى الحقوق عليه
 فتصير المعاصي والرفائل الخفية والظاهرة حيال هذا الخوف
 مكروهة عمقوتة مستهجنة مطرودة شياطينها من النفس عند
 المرء الذي يشعر من نفسه بازاء هاته الشرور والمساوى « انه
 كالسقيم العارف بدائه فيجتئى مخافة طول السقام » كما قال
 الحكيم الصوفي المشهور ذو النون المصري

وهاهنا يأتي دور « المحاسبة والمراقبة » محاسبة النفس
 ومراقبتها في الاعمال والاحوال التي يجريها المرء أو تنصف بها
 نفسه لان المرء لما يعلم ان الله تعالى يحيط بكل شيء علماً خافيه
 كباطنه وفي القرآن « واعلموا ان الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه »
 والآية الاخرى « ويعلم خائفة الاعين وما تخفي الصدور »
 فلهذا يجب على كل امرئ عاقل أن يحاسب نفسه ويراقب

ربه حتى ينال السعادة وتكثر حسناته « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » « يوم تجرد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمدا بعيداً » ناهيك أن في هذه المحاسبة وتلك المراقبة استصلاح حال الدنيا وهو سر تجويد كل الاعمال الاجتماعية فيها فتنظم للمرء حال دنياه وتصفو له موارد حياته من الاكدار والمكورات الذميمة كما تعظم له الحسنات في الآخرة .

وهذه المحاسبة للنفس انما تكون عادة للعقل المتعلم المثقف المسيطر عليها لانه لما كان هذا العقل الوهبي منه والكسبي قد جعل بفضل الله كالسلطان الوازع الذي يحسن سياسة ملكه ويتقن تدبير دولته فهو يوظف للنفس الوظائف المبينة في الشرع والادب النفسى ولا يكتفى بذلك بل لمعرفة بعظم المسؤولية يراقبها ومحاسنها حساباً دقيقاً اذا هي قصرت أو أهملت أو خالفت أو خانت وهذا العمل من العقل الرشيد له أسوة بما يجرى من الاعمال الدنيوية فيما بين الخلق وبعضهم مما هم فيه مسوقون من الارتباطات العملية بل هو لعمري أعظم من ذلك فيما يجب أن يكون بين المرء ونفسه لان الفلاح

والنجاح مقرونان بهذا مرتبطان به في كل تلك الشؤون فلذلك كان سبب كل خير ومفتاح كل سعادة وهناء فيجب على كل انسان عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر والحالة هذه أن يقوم بحاسبة نفسه التي بين جنبيه والتي هي كما في الحديث الشريف تحطب عليه ولقد حفت الجنة بالمكاره كما حفت النار بالشهوات فلا ينبغي للمرء أن ينقل أمر مراقبة نفسه في هذا العالم ويدقق في مراقبتها ومحاسبتها ومجاهدتها في كل حركاتها وسكناتها وشهواتها ونزعاتها الاجتماعية إذ كل نفس من أنفاس عمر الانسان جوهره نفيسة لا عوض لها ويمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهي نعيمه فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو صرفها فيما يوجب الخسران والهلاك لا تسمح به نفس عاقل فوجب المراقبة والمحاسبة والمعاينة والزجر والتوبخ للنفس على تقصيرها وانزاجها في المفسد حتى ترجع عن غيرها وتووب الى الصواب والرشاد من قريب لان العمر لا يعلم أجله الا الله تعالى فاذا أصبح المرء فليشارط نفسه على عمل الخير واذا أمسى فليحاسبها على ما أتت من عمل ويوبخها على التقصير والتفريط وليعلم ان عليه من الله رقيباً عتيداً وأنه مجزى بعمله

وانه تعالى شاهد أمره قائم على كل نفس بما كسبت ولقد جاء في الحديث الشريف « أعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » شعر

ولا تحسبن الله يفتل ساعة ولا ان ما تخفيه عنه يفيب
 وهذا الحال حال المحاسبة والمراقبة للنفس يقتضى بالطبع تلك الحال المظيمة من « التوبة » (والله يحب التوابين) مما قد يقترف من الخطايا والذنوب ، ومقام التوبة وتجديدها والاستغفار من الخطايا والدعاء والضراعة الى الله لكشف العيوب والذنوب والمون على تسديد الاعمال وتجويد الافعال أمر منصوص عليه في القرآن المجيد والسنة النبوية الكريمة (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وانما للتوبة آداب وشروط أهمها اصدق العزيمة واخلاص النية ورد المظالم وغسل الذنوب بماء الندم ودموع الاسف والاشفاق والاستغفار والضراعة الى الله بقلب مملوء الخشوع والانابة والاستحياء من الله تعالى فيما قد فرط من النفس وبدر من الجوارح والتوبة النصوح تخرج العبد من حال البعد الى حال القرب بل تجعله يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب ، وباعث التوبة بعد هداية الله ان الذنوب حجاب

تحجب القلب وتحرمه حلاوة الايمان الذى يزيد وينقص تبعاً
 لاحوال النفس في تشبهاتها وتحرمه ثمرة الاعمال وحبوطها فاذا
 كان الوجدانى ممن ذاق لذة الشعور والاحساس بواسطة ماهو
 حاصل لديه من قوة الايمان والعارف النوقية المكتسبة تألم
 لوقوع الذنب واقتراف الخطيئة فحصل الندم وكثر التوبخ
 الوجدانى للنفس بقدر معرفته وحكمه على الاشياء وتعموم
 المعاصي واحباطها للاعمال فيسرع من ثم الى التوبة ويبادر بها
 من قريب وهذا كله داخل فيما عرفنا الله عنه بقوله تعالى
 «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم
 الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» (انما
 التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فالتوبة
 التي أوجبها الله على عباده ويحبها منهم ويحبهم من أجلها هي
 التوبة التي تكون عن ارادة وعزيمة هي تلك التوبة النصوح
 التي لا يعود المرء بعدها الى ما اقترف من الآثام ثانية لان
 العود اليها من أقبح أنواع الذنب والجرأة على الله والتعرض لكبير
 سخطه قال يحيى بن معاذ الرازى « زلة واحدة بعد التوبة أقبح
 من سبعين قبلها » فالتوبة النصوح كما قال الاستاذ أبو بكر

الواسطي رحمه الله « أن لا يبقى أثر من آثار المعصية سرّاً
 وجهرّاً » وقال ذوالنون المصري ذلك الصوفي الكبير « الاستغفار
 من غير اقلع توبة الكذابين » على ان من يمتلك قلوبهم نور
 الايمان وتعلماً أفقدهم أضواء التقوى على أشرف أحوالها
 مدركين لتلك المبدأ الذي يرتكز على قول رسول الله صلى الله
 عليه وسلم « ترك الخطيئة أهون من طاب التوبة فاعتنم غفلة
 النية » قد يكون لهم من ذلك أعظم درع وحرز حريز يقيم
 شر الوقوع في كبائر الذنوب وصفاتها وانما لما يعرض عادة
 للنفس البشرية في هذا العالم من الموارض لزم أخذ الحيلة
 ولزم اشعار النفس دائماً بالتوبة والاستغفار مصداقاً للآية الشريفة
 (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ولقد جاء
 في الحديث عن سيد المصومين من رسل الله قال (انه ليغان
 على قلبي واني لأستغفرن الله في اليوم سبعين مرة) وليس في
 هذا الا زيادة قرب من الله وهداية في سبيله وتمسك بالخير
 ونفض الايدي من الشر والغفلة حتى تستيقظ النفس دائماً
 الى تجنب الشر خوفاً منه مهما صغر وحقر والمحاسبة والمراقبة على
 ما يفرط منها والقيام بادراع هذا الدرع النفساني المنيع من التوبة

والتحرز من الاحوال الكبيرة التي تطرأ على القلوب والنفوس
من مجريات الاحوال الاجتماعية التي قد تصادف الانسان
أوهي في الواقع من ملازمات العمران البشري والنعم عاينها
حتى لا تمود النفس الى مثلها أبداً وتعتمد من ثم الكمال
النفسي ازاء حكم الوجدان الشريف والشرع المنيف وهذا البحث
طويل قد وفاه الامام الغزالي حقه في الاحياء وصاحب غنية
الطالب الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه المشار اليه آنفاً
وغيرها من أجلة أئمة الاخلاق الدينية

أما الصبر فلك الذي ذكره الله تعالى في محكم التنزيل
ومدحه وبشر من يدرع به (واصبر وما صبرك إلا بالله)
و (بشر الصابرين) (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب)
الى آخر ما جاء في ذلك من الآيات والحكم فهو من أرفع
المقامات في أدب الدين الاسلامي النفسي وهو خصيص
بالانسان لتوسطه في خلقته بين الملك المستغنى عنه لكماله
والبهيمة التي لا تقدر عليه بارادتها فاذا قد خص فضله وفضيلته
بالانسان كما خص أجره به وبشر بذلك أيما بشارة فمن صبر
وملك نفسه في جميع أحوالها وزعاتها بهزيمة ثابتة وارادة قوية

وقلب منيب دخل في جملة الصديقين والملائكة المطهرين ومن
انعكس أمره انخرط في سلك البهائم وباء بالخسران وبه عن
صفة الكمال

والصبر يكون بحفظ الحواس والجوارح عن الاندفاع في
الشهوات المنهي عنها وتحمل مشاق الامور التي لا حيلة لدفعها
بجنان ثابت وجأش رابط بلا تملل ولا تسخط على الاقدار
الجارية من قبل الله تعالى وتصاريفه في خلقه خصوصاً من
حيث الارزاق والأمراض على ان التزام الصبر والرضا عن
الله مع التحايل على دفع الامور بالتي هي أحسن من مثل
السعي والتداوى بما أوشد اليه الشرع والعرف الحسن قد
ينتج للمرء الخير كل الخير دنيا وأخرى فبالصبر عن الشهوات
تنال الدرجات وبالصبر على المكاره توفي الاجور بغير حساب .
وامظم فضل الصبر دينياً جعل شطر الايمان كما جعل
شطره الآخر (الشكر) وهذا الحال أي حال الشكر لله تعالى
قد يرى لعين المؤمن المخلص لله انه تعالى حقيق به على كل
حال لان نعمه المتواصلة على الانسان قد تكل عن حصرها
وشكرها الالسن البليغة وأن له تعالى شأنه حتى في الضراء

عند التمن وتدقيق الفكر الطافاً خفية وحكما تمار فيها المقول
وتقتضى عند شؤى النهى واولى الالباب غاية الحمد وغاية
الشكر طلباً للعفو والمافية وتحصيل الاجر في نعمه المتواصلة
بالحق علينا ولقد قال الله « وان تمشوا نعمة الله لا تحصوها »
وقال تعالى في زيادة النعم بالشكر عليها « واثن شكرتم لأزيدنكم »
وقال تعالى في جزاء الشاكرين « وسنجزي الشاكرين »
ومقام الشكر ينتظم ككل المقامات الدينية والاجتماعية
الانفسانية من علم وحال وعمل ، فالعلم بالعلم بأن كل النعم
الكونية المتواصلة على الخلق من الانشاء والايجاد واخراج
الارزاق والاقوات حتى الهواء والنسيم العليل الذي نستنشقه
ثم تنمية الابدان وتقوية المقول وهدايتها الى احسن الامور
الاجتماعية والعلمية وارسال الرسل الى آخر ما في الباب من
النعم المتواصلة بما لا يحيط به المد أو يحصره الوصف فكل
هذا من جلائل النعم التي يجب شكر الله عليها وحمده والثناء
عليه تعالى من أجلها بما هو أهله من الحامد والتنزيه لذاته
والتمجيد لاسمه عز وجل فمن ثم يكتسب الحال أى الاتصاف
ورسوخ ملكة المبدأ الموجب عند المرء العمل أى القيام بأداء

الشكر الجميل والحمد لله تعالى بالجنان الذي هو مصدره واللسان الذي هو مورده غالباً ، وهذا الحال من الشكر ومقامه الجليل تتفاوت فيه الهمم بحسب اتساع نطاق عقول الخلق وفهمهم للصنع العظيم والتدبير المحكم الذي يتمتعون بنعمه ويرتمون في بحاجه من فضل الله الحكيم العليم الذي يجازى الشكور ويشكر اعباده المؤمنين وتشمل رحمته العالمين ويثيب الحسنه بعشر أمثالها ، فالشكر واجب على كل حال لله تعالى رب العالمين رب القوة والمظمة رب الرحمة والمطف والحنان لانه اذا كان الانسان معها انحط أدبه وسفلت نفسه قد يشكر الى من يحسن اليه أدنى احسان للقاعدة المشهورة شرعياً وأدبياً من ان شكر المنعم واجب فالرب تعالى مع كل هذه النعم والرحمات والالطاف المتواصلة الصادرة منه تعالى الى خلقه أخرى وأجدر بأن يشكر ويحمد لدي أهل الايمان بانواع الشكر لانه المستحق بما نصب من دلائل عظمته وفيوضاته العميمة لجميع المحامد والثناء والشكر ولذلك جاء في الآية « اشكروا لي ولوالديك » ولكن كثيراً من بني آدم للاجهالات الغالبة والضلالات اللاحقة ينأى بجانبه ويعرض عن شكر

المولى أو لا يشعره نفسه بالمقدار اللازم كما قيل

ومن الرزية أن شكري صامت عما فعلت وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أصرها انى اذا ليد الكريم لسارق
والشكر للناس فيما يستحقون عليه الشكر والثناء واجب
حكى الله تعالى فيه ولذلك جاء في الاثر الشريف « لم يشكر
الله من لم يشكر الناس »

ومن أجل المقامات واجل الاحوال النفسانية مقام
« التوكل » وقد قال الله تعالى « وعلى الله فليتوكل المتوكلون »
و « من يتوكل على الله فهو حسبه » وهذا الادب النفساني
ككل احوال النفس الاخرى الواجب التأدب بها مع الله
تعالى يبنى على علم راسخ بقدره الله عز وجل العظيمة الغالبة
وجميل صنعه وتديره للاشياء كلها بما لا يمكن لعقل انسان ان
يستكنه على التمام دقيق الطاف الله وعظيم رحمته وعونه وعنايته
بخلقه فترى النفس ان هناك منه تعالى لا من سواه سندا أقوى
وعضداً نصيراً يجب ان يعتمد عليه ويستعان به في كل الاحوال
والاعمال والجهادات الحيوية لا على ما يفهمه بعض جهلة
المتصوفة من الاستغراق في رسوم العبادة وترك العمل والسعي

والانقطاع جملة عن ذلك وترك التداوي من الامراض مثلاً
وكذلك تلك الاحوال والاعتقادات الفاسدة من العوام بالنظر
الى الاستعانة بالاولياء والصالحين ورمى الجمول عليهم وهم يبرأون
الى الله من تلك الضلالات الى أشباه ذلك من أحوالهم
الفاسدة فان هذا وذاك كله ليس من التوكل في شيء بل هو
من البه والتعننت بالنسبة الى أحوال جهلة هؤلاء المتصوفة
ومن شر أنواع الجهل والضلال والجرأة على الله تعالى بالنظر
الى أحوال العوام بل هو ضرب من الشرك الخفي وعدم التوكل
الحقيقي وصرف الوجوه عن غير المعبود الأعظم جل جلاله الذي
له وحده التصريف الاعلى ولا شفيع الا من بعد اذنه لمن
ارتضى فالمراد بالتوكل على الله إنما هو قيام الناس بتدبير
مصالحهم واثقة نفوسهم مع ذلك بمهونة الله لهم في كل أمورهم
وحلول بر كته تعالى في جميع أعمالهم ومساعدتهم وظفر نفوسهم
بمبتغياتها الحققة المبنية على المبادئ الصحيحة الشرعية في القيام
بكل الاعمال وهذا قد يرشد اليه بالنظر الى ما أنا بصددده الآن
من حيث المساعي العملية معنى الحديث الشريف « لو توكلتم
على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفاصاً وتروح

بطاناً ، فان للطير ككل ذى حياة في سميها على أقواتها وأرزاقها
 حركات موزونة وطباع منتظمة تبكر لها بكور الفراب
 وتجرى فيها نكيل الرهان ثم تأوى في نهايتها الى أوكارها
 واعشاشها ولمرى ان هذا هو الذ وأسعد حال تراح اليه
 النفوس ويوافق ناموس الله في خلقه مما قد تجد فيه الأنفس
 الانسانية المتدنية راحتها ومعونة الله حقيقة لها فيها ولذا جاء
 في الحديث الشريف للحث والترغيب (بارك الله لأمتي في
 بكورها) فالتوكل لا ينافي البتة ملابسة الاسباب التي لا تنكر
 وحديث أعتقها وتوكل مشهور مبين لفضل الاسباب غير
 قاذح في فضل التوكل ولا في معناه الديني لانه خروج عن
 الاسباب في الباطن ورجوع اليها في الظاهر وهذا منتهى
 درجة الكمال في التوكل عند أرباب هذا الكمال الديني
 فشواهد الكتاب العزيز كلها أسنة ناطقة والة على الاسباب
 ثم على مسبب الاسباب فالاتصاف بالتوكل عمل بالاسباب
 وركون الى مسبب الاسباب وهذا هو المبدأ الصحيح في
 استحباب التوكل الذي يأمر به الله ويجب اشعار القلب به في
 جميع الاعمال والاحوال وان كان ركونا الى الله ذى الطول

والحول وحده ، ولا ريب ان هذا الحال من الاتصاف بالتوكل
 مثمر لاجل النتائج في كل الامور الحيوية الحسية والمعنوية
 وهو من الامور الخفية ككل الآداب النفسانية مع الخالق
 فيكون القلب معلقاً بالخالق وحده مسبب الاسباب ومعين
 العباد متوكلاً عليه واثقاً تمام الوثوق بعظيم فضله وكبير عونه
 والجوارح متأدبة بأدب الشرع في التمسك بالاسباب عامة
 بها ونعم رأس المال التوكل ونعم ما يجني من ثماره وفوائده
 بالاسباب وأرباحه ولقد قال الله تعالى « وفي السماء رزقكم
 وما توعدون » وقال تعالى « فاسمعوا في مناكبها وكلوا من
 رزقه » وقال تعالى في اشعار القلوب الاطمئنان ومبدأ التوكل
 « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » والآيات الاخر الصريحة في
 التوكل وأمثالها لتدلنا صريحاً على حقيقة المطلوبة له تعالى منا
 من حيث وضع ثقنا بفضله وعونه ونصره في كل أمورنا وهو
 تعالى نعم العون ونعم المضد ثم العمل بالاسباب ليم أمره في
 خلقته بحسب ما جعل من سنن لها ونظام مما لا سبيل الي
 تبديله ولا تغييره

ومن أشرف المقامات الناجمة عن التقوى ومعرفة النفس

بمقارنة هذا العالم وحياته الفانية وشموورها بعظم جلائل النعم في
الدار الآخرة «الزهد» الذي هو انصراف الرغبة الحقة النفسية
عن حظوظ هذا العالم الفاني وملذاته غير الباقية انصرافاً قليلاً
بتقصير الامل بالمعنى الصحيح والزهد فيها بما ترى آثاره في
الاحوال العملية بمراعاة البساطة والزهادة في سائر مقامات
الحياة وحظوظ النفوس فيها اذ للتمنخل والتأنق مساويهما
وكراهيتهما في الدين كما أن للزهد والتزهد حكمهما وفضلهما
رغبة فيما عند الله من الثواب العظيم والنعم المقيم وصرفاً للنفس
عما يفسد عليها أحوالها الادبية وأعمالها المادية ويباعد بها عن
سلوك طريق الآخرة وحسن السلوك في الدنيا .

والزهد كالتوكل ليس معناه ترك الاسباب أو كل حظوظ
النفس في هذا العالم بل قد يكون المرء غنياً وزاهداً قانعاً في
وقت واحد كما قد يكون لا غنياً ولا متورعاً زاهداً ولكن
حشو قلبه ونفسه الطمع والشهه والجشع والغل والحسد وحب
السرف والترف في زينة الدنيا وزخرفها اذا هي أقبلت عليه مع
قلة همته في العمل وحب البطالة والكسل وهذا هو شر حال
للناس ، عن بعض الصحابة رضى الله عنهم قال : قلنا يارسول الله

« أي الناس خير قال كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان
فلنا يا رسول الله وما محموم القلب قال التقى التقى الذي لا غل
فيه ولا غش ولا بنى ولا حسد - قلنا يا رسول الله فمن على
اثره قال الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة »

والاخبار والآثار في فضل الزهد كثيرة كقوله عليه
الصلاة والسلام اذا رأيتم العبد أعطى صمتاً وزهداً في الدنيا
فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة وقال تعالى « ومن يؤت الحكمة
فقد أوتي خيراً كثيراً » واتقد قيل ان المطلوب من الزهد في
الدنيا ما يفهم من الآية الشريفة « لكيلا تأسوا على ما فاتكم
ولا تفرحوا بما آتاكم » اذ الزاهد حقيقة لا يفرح بوجود من
متاع الدنيا ولا يتأسف على مفقود منها بحسب المراد منه
هاهنا ، وفسر الامام الثوري الزهد بقصر الامل في الدنيا فقال
« الزهد في الدنيا قصر الامل ليس باكل الغليظ ولبس العباءة »
وليس قصر الامل أو بغض الدنيا النفسي الذي فسروا به
هذا الزهد هو ابطال العمل أو الكف عن النعيم المباح
والاستعمار المطلوب للدنيا وفي الاثر الشريف « اعمل لدنياك
كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » بل

هو حالة تقوم بالنفس المتديئة ترى صاحبها الدنيا على حقيقتها
وحقارتها وتصر بحفظها ومتاعها القليل مهما كانت ومهما وجب
وتدب الشارع الى السبي فيها والسران لها لبقاء الجنس وحفظ
النوع سزاً مكرماً فيرض المرء من ثمّ فيما عنده الله ويقبل
بخطره وأمله وعواطفه الخفية الى تحرى ثواب الله ومشية الله،
الى تلك السعادة الحقيقية رامياً في كل مطلوب اعماله الدنيوية
وساعيه العملية الى ما يجنى من الربح العظيم في الآخرة ولا
ريب أن من يبلغ تلك الدرجة العظيمة من الزهد اتصف
بالاحسان وفاز بأجل المقامات والآداب النفسانية والراحة
البدنية مصداقاً للحديث الشريف «الزهد في الدنيا يريح القلب
والبدن» لأن الدين مها جاهد في الدنيا وحصل من متاعها
ونعيمها الحلال المطلوب فهو وان عد ذلك كله من اكبر نعم الله
عليه الواجب شكرها يراه ايضاً صغيراً حقيراً بالنظر الى
ما يستقبله من نعيم الجنة الذي أعده الله لعباده المؤمنين وصرح
الآية الشريفة بقول «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أمين
جزاء بما كانوا يعملون»

وآخر ما قصدت عنده من تلك المقامات الأدبية النفسانية

ويجدر ان يتحتم به هذا القسم من أدب النفس مع الخالق تعالى وما لها من أحوال ومقات يجب اتصافها بها بحجة سبحانه وتعالى «الفكر» والتدبر والتأمل والاستبصار في «عظمة الملك والملكوت» لان الاسلام لما كان «الدين القايي» الذي يستند على العلم والعلم يقتضى انطلاق العقل بالفكر والتدبر في كل الاحوال والمقامات وسائر الاعمال والمصنوعات الطبيعية والانسانية لذلك جاء في القرآن الشريف مطالباً منه مندوباً اليه في غير ما موضع من الكتاب العزيز كما في الآية «ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار» ولذا جاء في الحديث الشريف «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة»

ويطلب الفكر ايضاً دينياً عندنا في أحوال النفوس ومعارفها وافعالها قال الفضيل «الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك» وقال الحسن هذه الحكمة البليغة «ان أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى

استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة ، وقال وهب « ما طالت
فكرة اصريء قط الا علم وما علم قط الا عمل » وقال عمر بن
عبد العزيز « الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادات »
وقال حاتم « من العبرة يزيد العلم ومن الذكر تزيد المحبة ومن
التفكير يزيد الخوف » وقال ابن عباس « التفكير في الخير يدعو
الى العمل به والندم على الشر يدعو الى تركه »

وقال الشافعي رضى الله عنه « استعينوا على الكلام
بالصمت وعلي الاستنباط بالفكر » وقال أيضاً « صحة النظر في
الامور نجاة من الغرور ، والعزم في الرأي سلامة من التفریط
والندم ، والرؤية والفكر يكشفان عن الحزم ، والفتنة ومشاورة
الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ، تفكر قبل ان تعزم
وتدبر قبل ان تهجم وشاور قبل ان تقدم » وقال الشاعر :

اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

ولا غرو فانه باطالة الفكرة والتأمل يحصل للانسان العلم
اليقيني والحكم القطعي او الذي ترتاح اليه النفس فيبعد عن
التقليد الاعمي في الاحوال والافعال والعلم وكما اتسع نطاق علم
الانسان ومعارفة المكتسبة ومعلوماته التي يحصلها ويستفيدها

من تجربات هذا العالم وحوادثه سيما فكره وعلا في الافواق
الاجتماعية والاحوال والمقامات الدينية كسبه فحى من
ثم دينياً ودينيوياً أشهى الثمار الفكرية والتأملات العقلية
والمعادات والافواق فازداد بهذا كله قرباً من الله وبهداً
بالنفس عن مساوى حالاتها وسفاسفها المستقاة من شرور
العالم فينير الله بصيرته ويجلى قلبه ويرفع شأنه ويسدد خطاه في
كل أعماله ويعلم ما بين جوانحه نورا وحكمة روحانية يستلذ بها
ويطيب بما لا يمكن ان تعاد لها عنده لانه اخرى أو يساويها
سرور ثان ولقد قال الامام الجنيد ذلك الصوفي الكبير هذه
الحكمة الغالية والموعظة الحسنة العالية قال « أشرف المجالس
وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم
المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن
الظن لله عز وجل وياها من مجالس ما أجلها ومن شراب
ما أذاه طوبى لمن رزقه ^(١) »

(١) الاحياء للغزالي

